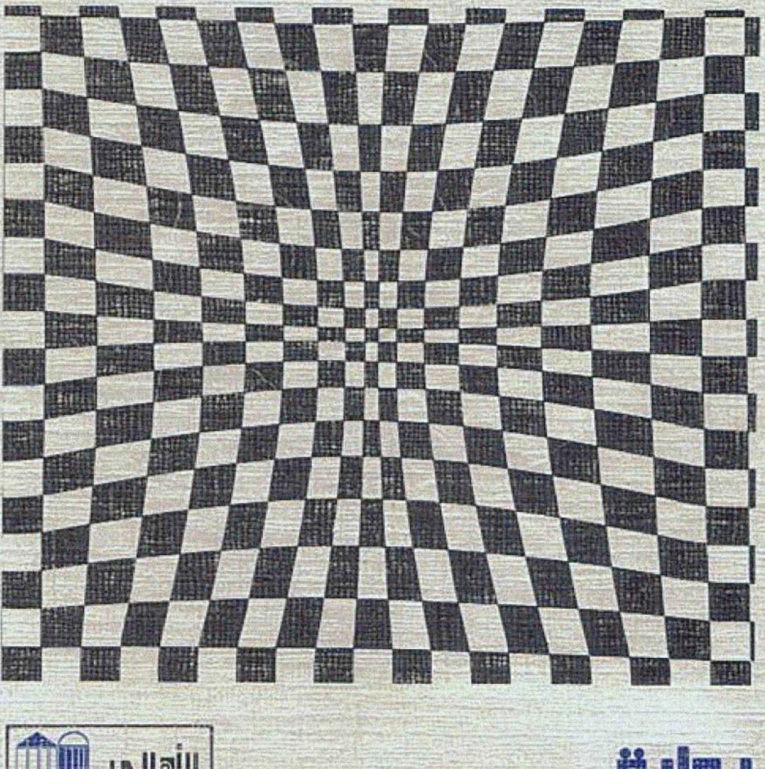
ارنستو ساباتو

النفق

ترجمها عن الاسبانية: عبد السلام عقيل



رواية

الأهالي

الطبعة الأولى ٣٠٠٠ / ٧ / ١٩٨٨

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

إلى صداقة روخيليو فريخيريو

التي صمدت لكل آمال الأفكار وتقلباتها .

«.... كان هناك، في جميع الأحوال، نفق واحد فقط
مظلم وموحش: هو نفقي أنا.......»

- ١ -

سأكتفي بالقول إني «خوان بابلوكاستيل»، الرسام الذي قتل ماريا ايريبارني، اظن ان المحاكمة ما تزال ماثلة في ذاكرة الجميع، ولا حاجة لايضاحات أوفى عن شخصي.

وعلى الرغم من أن احداً لا يدري - حتى ولا الشيطان - ما الذي يتعين على الناس ان يتذكروه، ولماذا، فانني، في الواقع، لا اؤمن بوجود ذاكرة جماعية ابداً - ولعل الأمر لا يعدو أن يكون شكلاً من أشكال دفاع الجنس البشري عن ذاته. ان عبارة «كل زمن مضى كان أفضل» لا تدل على أن قليلاً من الأمور السيئة كان يحدث فيما سلف، وانما تعني ان الناس لحسن الحظ، لا يتذكرون تلك الامور، بل يلقونها في غياهب النسيان. وعبارة كهذه، لا تقبل على اطلاقها طبعاً، فأنا مثلاً، اتميز بكوني أفضل تذكر الامور السيئة، ولذا يمكنني أن أقول «ان كل زمن مضى كان اسوأ» وإن لم يكن الأمر كذلك، فإن الحاضر يبدو لي بالغ السوء كالماضي، اتذكر العديد من المصائب، والوجوه المستهترة القاسية والافعال السيئة، والذاكرة بالنسبة لي، أشبه ما تكون بنور باهت يضيء متحفاً قذراً للعار. كم مرة جعلتني قراءة خبر في قسم الجرائم في الجريدة، انتبذ ركناً مظلماً من المرسم طوال ساعات (. . . لكن الحقيقة هي ان ما هو أكثر خزياً للجنس البشري لا يظهر في تلك الصفحات، والمجرمون هم - إلى حد ما - أناس اكثر نقاء، وأقل ايذاء، لا أجزم بذلك لأني - أنا بالذات - قتلت مخلوقاً بشرياً، وانما لأنني اؤمن به ايماناً نزيهاً ومتأصلاً. هذا انسان مؤذ. . .؟. . ليتم القضاء عليه اذن ولينته الامر. ان هذا ما أسميه عملاً صالحاً. فكروا كم هو ضار للمجتمع إذا ما واصل هذا الانسان نشر سمومه، وإذا ما اكتفينا بدلاً من القضاء عليه باللجوء إلى أعمال الدس والتشهير وما الى ذلك من الحقارات المماثلة، كي نحول بينه وبين مااقترفه من اذى. وفيما يتعلق بي، يجب أن اعترف الآن بأني اشعر بالأسف لأنني عندما

كنت حراً لم احسن اغتنام الفرصة، فاقتل ستة أو سبعة من الأشخاص الذين اعرفهم .

ان العالم لفظيع . . حقيقة لا تحتاج إلى برهان . وفي جميع الأحوال قد تكفي الواقعة التالية لاثبات ذلك . . في احد معسكرات الاعتقال شكا عازف بيانو من الجوع ، فأجبروه على أكل فأرة . . ولكن، وهي حية .

ليس هذا ما أرغب في الحديث عنه الآن ، ومع ذلك . إذا سنحت لي الفرصة سأتحدث فيما بعد، عن موضوع الفأرة .

- ٢ -

اسمي كما قلت، خوان بابلوكـاستيـل، يمكنكم أن تتسـاءلـوا عما يحملني على كتابة قصة جريمتي، (لا أدري إن كنت قد قلت إنني سأروي قصة جريمتي) وعـلي البحث - إلى جانب ذلـك - عن ناشـر لها أيضاً. اعرف النفس البشرية تمام المعرفة، ولذا ادرك سلفاً أنكم ستطنون بي الغرور. فكروا كما يحلولكم، لا يهمني ذلك البتة، منذ برهة، لم يعد يهمني قيد أنملة رأي البـشر وعدالتهم. افترضوا إذن انني انشـر هذه القصـة بدافـع من الغـرور، لكنني في المحصلة النهائية، كائن من لحم، وعظم، واظـافـر، وشعـر، كأي إنسـان آخـر، ويخيـل إلي انه لمن الظلم ان تطلبـوا مني، انـا بالـذات ان أتمتـع بصفـات خاصـة. يحسب المرء أحياناً إنه فوق البشـر، ثم لا يلبث ان يدرك انـه، حقـير وقذر، وغدار أيضاً. ليس في وسعي أن أقول شيئاً عن الغرور فأنا اعتقد ان أي انسان لا يخلو من هذا الحافز البارز للرقي الإنساني. ويثيـر في الضحك اولئك السادة، الذين يدعون تواضع انشتاين، او من هم على شاكلتـه، وجـوابـاً على ذلـك اقول: من السهل على المرء ان يكون متواضعاً عندما يكون مشهوراً، أعني ان يتظاهر بالتواضع، وحتى عندما يتصور انـه لا وجـود للغـرور البشري اطلاقاً، سرعان ما يتكشف الأمر عن صيغته الأكثر دقة.. غرور التواضع.

ما أكثـر ما نصطـدم بهذا النـوع من النـاس...! حتى ان رجلاً حقيقياً أو رمزياً كالمسيح ذاته، نطق بعبارات شتى بدافع من الغرور، أوعلى الأقل، بدافع من العزة. وماذا نقول عن «ليون بلوى» الذي كان يدفع عن نفسه تهمة العجرفة بحجة انه قضى عمره يخدم افراداً لا يصلون إلى مستوى ركبتيه..؟.. إننا نعثر على الغـرور، في مواضـع لا نتـوقـع وجـوده فيها البتة، نجده إلى جانب الطيبة، ونكران الذات والسخاء.

عندما كنت صغيراً، كنت اشعر بالقنوط، من مجرد التفكير بان أمي لا بد

أن تموت يوماً ما، (تُعَلِمنا الأيام أن الموت ليس أمراً محتملاً وحسب، وانما مريح أيضاً) لم أكن أتصور أن يشوب أمي أي عيب، والآن وقد رحلت، يتعين علي أن أقول، إنها كانت طيبة بما في وسع كائن بشري أن يكون. لكنني أتذكر في أيامها الأخيرة، عندما أصبحتُ رجلاً، كم كان يؤلمني في البدء، ان اكتشف في أفضل أفعالها، شيئاً ما يشف عن الغرور والعزة. هزني أمر بالغ الدلالة عندما أجريت لها جراحة لاستئصال السرطان.كان يتعين علي كي أصل في الوقت المناسب، أن أسافر طيلة يومين كاملين، بلا توقف أو نوم، وحينما وقفت إلى جانب سريرها، افتَرَّ محياها الذي علته غبرة الموت، ببطء وحنو، عن ابتسامة، وتمتمت ببضع كلمات تنضح بالرأفة (كانت تشفق علي من التعب!) وأحسست في أعماقي بخيلاء غرور غامض لحضوري بهذه السرعة. ابوح بهذا السر كي تروا إلى أي مدى لا أعتبر نفسي أفضل من الآخرين.

ومع ذلك فإنني لا أروي هذه القصة بدافع من غرور. ولعلي على استعداد للتسليم بأن في الأمر شيئاً من الزهو والأنفة. ولكن علام هذا الهوس في محاولة تفسير كل أحداث الحياة؟ كنت أود أن اسرد قصة جريمتي وحسب، ومن لا تحلو له يجدر به ألا يقرأها، وان كنت اعتقد ان ذلك لن يحدث لأن أولئك الذين يجرون وراء التفسيرات، هم بالضرورة، اكثر الناس فضولاً، وان ايّاً منهم لن يفوِّت فرصة قراءة قصة الجريمة حتى نهايتها.

قد استطيع الاحتفاظ بالاسباب التي حدت بي أن اكتب هذه الصفحات من اعترافاتي، ولكن بما أنه ليس هناك من فائدة لي في أن ابدو شاذاً، فسأقول الحقيقة، وهي على كل حال بسيطة للغاية. لقد خطر لي أنه يمكن أن يقرأها كثير من الناس نظراً للشهرة التي أتمتع بها الآن، وانا، وان كنت لا أعلق آمالاً كبيرة على البشرية بعامة. وعلى قراء هذه الصفحات بخاصة، فلا أزال يحدوني أمل ضئيل بأنَّ شخصاً ما سيتوصل إلى فهمي، حتى ولو كان شخصاً واحداً فقط.

قد يسأل سائل . . . لماذا . . ؟ . . لماذا يكاد يكون الأمل ضئيلاً، إذا كان

كثير من الأشخاص سيقرأون المخطوط . . ؟ هذا النوع من الأسئلة اعتبره عقيماً، ومع ذلك ينبغي توقعه، لأن الناس تطرح أسئلة عقيمة باستمرار، اسئلة يكشف التحليل - مهما كان سطحياً - ان لا ضرورة لها. يمكنني ان اتحدث حتى العياء، وبصوت مرتفع أمام جميعة تضم مائة ألف روسي من دون أن يفهم لغتي أحد منهم، فهل سيعير هؤلاء اهتماماً لما أريد قوله؟

كان هناك شخص واحد يمكنه أن يفهمني، **لكنه كان بالتأكيد، الشخص الذي قتلته.**

- ٣ -

يعـرف الجميـع اني قتلت ماريـا اريبارني هونتر، لكن احداً لا يعرف كيف تعرفتها ومـا هي تمـاماً حقيقـة العلاقات التي ربطت بيننا، وكيف راحت تختمر في نفسي فكـرة قتلهـا. سأحاول رواية كل شيء بتجرد، لأنني، وان كنت قد عانيت الكثير بسببها، انما لا أزعم لنفسي الكمال.

في قاعـة الـربيـع، عرضتُ في العام ١٩٤٦ لوحة سميتها **أمومة**. كانت على غرار سائـر لوحـاتي السـابقـة الكثيرة التي يقول عنها النقاد في لهجتهم التي لا تطاق انها متماسكة.. جيدة البناء... لقد كانت تنطوي على المزايا ذاتها التي يجدها اولئك الثرثارون في لوحاتي دائماً، بما في ذلك... شيء من العمق الفكري.

في أعلى اللوحـة من جهـة اليسـار، وعبر نافذة صغيرة، يلوح منظر صغير وبعيـد، منظـر شاطىء منعـزل، وامـرأة تنظر إلى البحر وكأنها تنتظر شيئاً ما، ربما كان نداء خافتاً بعيداً، كان المنظر يوحي برأيي، بوحدة قلقة ومطلقة.

ما من احـد تأمـل هذا المنظـر، كان الرواد ينظرون اليه عرضاً، كما لو أنهم امام أمر ثانوي، أو زخرفي، وباستثناء شخص واحد، يبدو ان احداً لم يدرك، انه يمثل امراً جوهرياً.

في يوم الافتتاح، وقفت فتاة مجهولة امام لوحتي طويلاً، وبدت انها لا تعير اهتـمامـاً، إلى المـرأة العجـوز التي تتصدر اللوحة وهي تتأمل صبياً يلعب. وعندما كانت مستغـرقـة في منظـر النـافذة الصغيرة، تأكدتُ أنها كانت منصرفة عن العالم بأسره لا ترى الناس الذين كانوا يمرون او يتوقفون امام اللوحة.

راقبتهـا بقلق طيلة الـوقت. ثم توارت بين الجمـوع، بينما كنت نهباً للتردد يتنـازعني خوف لا يقهـر من منـاداتها، ورغبة مكبوتة في ان اقوم بذلك. خوف من أي شيء...؟ ربـما كان خوف من يراهن بجميـع ما يملك في هذه الحياة، على رقم واحـد فقـط. إلا أنني شعـرت عنـدمـا توارت بالغيظ والتعاسة، وحسبت وانا

أراها تضيع بين الملايين المجهولة من سكان بوينس ايرس، أني قد لا أراها ثانية.

عدت تلك الليلة إلى المنزل متوتر الاعصاب، مكتئباً حزيناً.

وحتى انقضاء مدة المعرض، كنت اتردد يومياً على القاعة، أقف قريباً من اللوحة كي أتحقق من الأشخاص الذين يتوقفون أمامها. إلا أن الفتاة لم تظهر ثانية

وخلال الشهور التالية كنت لا أفكر إلا فيها، وفي امكانية رؤ يتها مرة أخرى وإلـى حد ما، كنـت لا أرسـم إلا من أجـلهـا، وكأن منظـر تلك الـنـافـذة الصغيرة، بدأ ينمو ويغزو اللوحة كلها وأعمالي جميعها.

أخيراً، رأيتها عصر ذات يوم تسير على الرصيف المقابل. كانت تمشي بتصميم كمن يتوجب عليه أن يصل إلى مكان معين، في ساعة معينة.

عرفتها في الحال، وكان بوسعي ان اعرفها في وسط أي حشد، شعرت بانفعال لا يوصف، من كثرة ما فكرت بها خلال الأشهر الأخيرة، ومن كثرة ما تخيلت من امور، وجدتني عندما رأيتها أقف حائراً لا أدري ماذا أفعل.

والحقيقة هي أني فكرت كثيراً، وخططت بدقة لما سيكون عليه موقفي إذا ما لقيتها. أظني قلت إني شديد الخجل، ولذا فكرت كثيراً في لقاء محتمل وفي كيفية اغتنامه. لكن العقبة الكأداء التي طالما تعثرت بها في تلك اللقاءات الخيالية كانت: كيف ابادرها الحديث.

اعرف كثيراً من الرجال الذين لا يجدون صعوبه في تبادل الحديث مع امرأة غريبة. واعترف أنني كنت فيما مضى، أحسدهم جداً، ورغم اني لم اكن فاجراً أبداً، أو، لأني لم أكن كذلك قطعاً، فقد رثيت لحالي بسبب فشلي في التواصل مع امرأة في مناسبتين أو ثلاث، من تلك المناسبات النادرة التي يبدو فيها انه من المستحيل الخضوع لفكرة ان تكون المرأة بعيدة عن حياتنا إلى الابد. ولسوء الحظ، كان محكوماً علي بأن ابقى بعيداً عن حياة اية امرأة.

في تلك اللقاءات الخيالية، كنت قد درست احتمالات شتى، اعرف سجيتي تماماً واعرف ان الظروف الطارئة والمباغتة تجعلني افقد رشدي من فرط التهور والخجل ولذا، فقد اعددت بعض البدائل التي كانت تبدو لي منطقية، أو ممكنة على الاقل (ليس منطقياً ان يبعث صديق حميم برسالة مهينة مغفلة التوقيع إلى صديقة، لكننا نعرف جميعاً ان ذلك ممكن).

كانت الفتاة - على ما يبدو - معتادة على ارتياد المعارض الفنية. في حال

اللقاء بها في أحد المعارض، سأقف إلى جانبها، ولن يكون الشروع في حديث حول احدى اللوحات المعروضة امراً معقداً جداً.

بعد ان محصت هذا الاحتمال بدقة، أهملته، ذلك إنني لم أكن أتردد على معارض الرسم أبداً. يمكن ان يبدو ذلك موقفاً غريباً جداً من فنان، ولكن له ما يفسره حقاً، وانني لعلى يقين من ان العالم اجمع سوف يعطيني الحق إذا ما عزمت على توضيح الاسباب التي تحملني على ذلك، حسناً ربما أبالغ في قولي «العالم أجمع» لا. لاشك أني أبالغ. لقد علمتني الخبرة ان ما يبدو لي واضحاً وجلياً قد لا يبدو للآخرين من بني البشر كذلك أبداً. وتجاربي المرة تجعلني أتردد الآن ألف مرة، قبل القيام بتبرير أو تفسير أي من مواقفي، إذ أكاد انتهي دائماً إلى الانطواء على نفسي، وإلى الصمت المطبق. وهذا فعلاً ما كان يحول حتى اليوم، بيني وبين أن أحزم أمري وأروي قصة جريمتي. وفي هذه اللحظات لا أدري ان كان الأمر يستحق ان اشرح موقفي من معارض الرسم بالتفصيل ام لا، وأخشى ان لم افعل ان تعتقدوا ان الموضوع ليس سوى هوس محض، بينما يعود، في الحقيقة إلى اسباب عميقة جداً.

في هذه الحالة، هناك في الواقع، أكثر من سبب. وسأبادر قبل أي شيء آخر فأقول، انني امقت التجمعات، والطوائف، والروابط، والنقابات، وبصورة خاصة، تلك المجموعات من الحشرات التي تنضم تحت لواء المهنة او الهوى او أي هوس من هذا القبيل. فلتلك التكتلات عادات تثير السخرية: كتكرار المظاهر، والمصطلحات المهنية، وغرور الاعتقاد بالتفوق على الآخرين.

ألاحظ أن المشكلة تتعقد، لكني لا أرى طريقة لتبسيطها. فمن يرغب في التخلي عن قراءة هذه الرواية الآن، يجدر به أن يفعل، وليعلم انني اعذره، واتعاطف معه بصورة مطلقة.

ماذا أقصد بتلك العبارة «تكرار المظاهر..»؟ ستلاحظون بلا شك، كم هو مقيت ان يجتمع المرء بشخص لا ينفك يغمز بعينيه، ويلوي بفمه. ولكن هل لكم

ان تتصوروا امثال ذلك الشخص وقد انضموا إلى ناد. . . ؟ . لا حاجة بي إلى هذه المبالغات، وانما تكفي ملاحظة بعض الأسر الكبيرة حيث يتشابه أفرادها في بعض الملامح والايماءات والنبرات المعينة. حدث لي ان وقعت في حب امرأة (بالسر بطبعاً)، وهربت مذعوراً من مجرد احتمال أن أتعرف إلى أخواتها. وفي مناسبة اخرى حدث لي أمر مريع، إذ وجدت في امرأة ملامح ممتعة جداً، ولكن، ماأن تعرفت إلى شقيقتها حتى اصابني الغم والخجل لمدة طويلة، فالملامح ذاتها التي بدت لي جميلة في تلك، ظهرت في اختها بارزة ومشوهة بشكل يكاد يكون كاريكاتورياً، وتَصوُّر هذا التشويه لجمال الأخت ولّد لديَّ، إلى جانب هذا الشعور، احساساً بالخجل، كما لو كان يقع علي، إلى حد ما، تبعة من جراء ما تسلطه الأخت من ضوء خفي ساخر، على المرأة التي اعجبت بها جداً.

ربما تحدث لي مثل هذه الأمور لأني رسام، فقد لاحظت ان الناس لا يعيرون أي اهتمام لتلك التشويهات العائلية. ويتعين علي أن أضيف، ان ما يشبه ذلك يداهمني مع اولئك الرسامين الذين يقومون بتقليد استاذ كبير، من امثال هؤلاء التعساء البائسين الذين يرسمون على طريقة بيكاسو.

وهناك مسألة المصطلحات المهنية، فهي توصيفات أخرى قلما احتملها، ويكفي تفحص أي من هذه الأمثلة: التحليل النفسي، الفاشية، الصحافة. لا فرق عندي بينها، فكلها تثير اشمئزازي: لآخذ مثالاً يتبادر إلى ذهني الآن وهو التحليل النفسي. الدكتور بارتو انسان موهوب، وكنت اعتبره صديقاً حقاً، إلا أن انضمامه إلى اولئك الرعاع الذين راحوا يلاحقوني، سبب لي خيبة امل مريرة. لكن لندع هذا جانباً الآن. ذات يوم، ما كدت اصل إلى عيادته، حتى بادرني القول، انه يتعين عليه ان ينصرف، ودعاني إلى مرافقته. سألته:

- إلى أين؟

فأجاب:

إلى حفلة استقبال الجمعية.

سألته باستهزاء مبطن:
ـ أية جمعية؟

إذ تضايقني جداً هذه الطريقة التي يلجأون إليها في استخدام اداة التعريف:
الـ جمعية، ويعنون بها، جمعية التحليل النفسي، الـ حزب، ويعنون به الحزب الشيوعي. الـ سابعة، ويعنون بها سمفونية بتهوفن السابعة.

نظر إلي باستغراب لكنني تحملت نظرته بسذاجة، وقال:
ـ جمعية التحليل النفسي يا رجل

ثم رمقني بعينيه الشاقبتين بنظرة يعتقد «الفرويديون» انها لازمة في مهنتهم وكان كمن يسأل نفسه، أي نوع من الجنون بدأ ينتاب هذا المعتوه...؟

وتذكرت أني قرأت شيئاً حول اجتماع أو مؤتمر يترأسه دكتور يدعى برنارد اوبرتراند ورغم قناعتي ان براتو لم يكن يعني هذا، سألته ان كان الأمر كذلك. نظر إلي وهو يبتسم بازدراء وقال:
ـ انهم ثرثارون ـ واستطرد ـ ان جمعية التحليل النفسي المعترف بها دولياً هي جمعيتنا.

واستدار نحو مكتبه، وبدأ يفتش في احد ادراجه، ثم عرض علي رسالة باللغة الانكليزية، فتأملتها مجاملة له وقلت:
ـ أنا لا أفقه اللغة الانكليزية.

واستطرد قائلاً:
ـ انها رسالة من شيكاغو، تعتمدنا نحن، الجمعية الوحيدة للتحليل النفسي في الأرجنتين.

فتظاهرت بالاعجاب والاحترام العميق.

ثم خرجنا، واقلتنا سيارة إلى مقر الجمعية. كان هناك عدد غفير من الناس عرفت اسم البعض منهم كالدكتور غولد نبرغ الذي نال في الأيام الأخيرة شهرة واسعة فقد زج به مع المرأة التي كان يعالجها سوية في مصح للأمراض العقلية ـ نظرت اليه بإمعان حين همّ بالانصراف، فلم يبد لي اسوأ من الآخرين انها اكثر

هدوءاً، وقد يعود ذلك إلى حجره في المصح، اشاد بلوحاتي بطريقة فهمت من خلالها انه يمقتها.

كان كل شيء بالغ الأناقة، وشعرت بالخجل من هندامي الرث، وانتفاخ ركبتي سروالي، ومع ذلك، لم يكن ما كابدته من شعور بالقباحة يعود إلى ذلك تماما، وانما لامر لم أتوصل إلى تحديده. وقد بلغ بي الأمر ذروته عندما اقتربت فتاة بالغة الرقة لتقدم لي بعض الشطائر، كانت تتحدث عن مشكلة شذوذ جنسي تتعلق بالتلذذ بآلام الشرج، لا أدري ما هي، ولعل ذلك الشعور ناتج عن الفارق بين قطع الأثاث الحديث العملية النقية، وبين سيدات وسادة بالغي النظافية يتفوهون بعبارات قذرة وبذيئة.

كنت أود البحث عن ملجأ في احدى الزوايا، لكن ذلك كان مستحيلاً. فالشقة كانت غاصة بمجموعة متماثلة من الناس يتحدثون باستمرار عن امور متشابهة. هربت إلى الشارع، وعندما التقيت بأناس عاديين، (بائع صحف، طفل، سائق) بدر إلي فجأة خاطر عجيب، وهو أن ارى هذا الخليط من الناس محشوراً في شقة واحدة.

لكنني، مع ذلك، امقت من بين الجماعات كلها، جماعة الرسامين بصورة خاصة، لأنني بطبيعة الحال أدرى بهم، ومن المعروف أن المرء يمكن أن يكره بحق من يعرف تمام المعرفة. وكذلك لدي سبب آخر لكراهية النقاد، فهم وباء لم أتمكن من ادراك كنهه اطلاقاً. لو كنت جراحاً كبيراً، وجاءني رجل لم يسبق له ان تناول مبضعاً قط، لاهو طبيب، ولن يجبر قائمة هر أبداً، ليبين أخطائي في عملية جراحية فماذا عساكم تتصورون...؟ يحدث الأمر ذاته في فن الرسم. والغريب ان الناس لا يلاحظون ذلك.فعلى الرغم من انهم يهزأون من ادعاءات ناقد الجراحة هذا، تراهم يصغون باحترام بالغ إلى اولئك الثرثارين. لعل الاصغاء بشيء من الاحترام إلى ناقد مارس فن الرسم ذات مرة ممكن، حتى وان كانت لوحاته عادية ـ بالرغم من ان ذلك سيكون في غاية السخف ـ ولكن، هل يعقل ان يقوم رسام عادي باسداء النصح إلى رسام ماهر؟!

لقد طوح بي بعيداً عن سبيلي، شغفني اللعين في تبر ير كل عمل أقوم به. لماذا بحق الشيطان، يتعين علي ان اشرح اسباب عدم ارتياد معارض الرسم؟ يبدو لي ان لكل انسان الحق في ان يفعل ما يحلو له سواء تردد عليها، او لم يتردد، ولا يحتاج إلى الاسهاب في تقديم الحجج والمبررات. إلى أي مدى سيبقى هذا الهاجس مسيطراً علي؟ لكن ما حصل قد حصل، وإن كان لا يزال لدي الكثير مما أقول حول مسألة المعارض تلك، كثرثرات الزملاء، وعمى الجمهور، وحماقة المسؤولين عن تحضير القاعة وتوزيع اللوحات. . ولحسن الطالع (أولسوئه)، سيان، فإن ذلك لم يعد يهمني، ولعلي اكتب ـ في يوم ما ـ بحثاً طويلاً عن الطريقة التي يجب على الرسام أن يدافع بها عن نفسه، أمام أصدقاء فن الرسم.

كان يتعين علي إذن ان استبعد امكانية العثور عليها في احد المعارض.

وقد يحدث مصادفة ان يكون لها صديق، هو صديقي في الوقت ذاته، في مثل هذه الحالة يكفي مجرد تقديم أحدنا للآخر. ارتميت في احضان هذا الاحتمال مبتهجاً، يبهرني نور الخجل المقيت. مجرد تقديم بسيط!. . كم اصبح الامر سهلاً. . ! وكم هو جميل. . !. لقد حال الانبهار دون أن أرى سخافة فكرة كهذه. لم افكر في تلك اللحظة أن العثور على صديق لها عسيروصعب، كصعوبة العثور عليها بالذات: إذ من الواضح انه يستحيل العثور على صديق لها من دون معرفة من تكون. ولكن، ان كنت اعرف من تكون، فلماذا اللجوء إلى شخص آخر. . ؟. يبقى إذن الامل الضئيل في تقديم احدنا للآخر، وهو امر لم استخف به. وان كان من الواضح ان المشكلة الاساسية، كانت مسألة العثور عليها، والبحث فيما بعد عن صديق مشترك ليقوم بتقديم احدنا للآخر.

ويبقى السبيل المعاكس. أي البحث عما إذا كان أحد اصدقائي، هو صديق لها مصادفة. وهذا يمكن القيام به من دون ان احتاج إلى العثور عليها أولاً، فقد يكفي ان أسأل معارفي فرداً فرداً عن فتاة قوامها كذا. . وشعرها

كذا . . لكن بدا لي ذلـك ضرباً من الـرعـونـة ، فعـزفت عنه ، وقد اخجلني مجرد تصوري أنني اطرح اسئلة من هذا القبيل على أناس من امثال مابيللي ولاتريغ.

اعتقــد انــه من المنـاسب ان اؤ كـد اني لم اصـرف النظـر عن مختلف هذه الاحتـمالات بدافـع من جنـون . قمت بذلـك للأسبـاب التي فرغت من عرضهـا وحسب . يمكن للبعض ان يعتقــد انــه لمن الجنـون فعـلاً تصـور هذا الاحتـمال البعيـد ، أي ان يكـون احـد معـارفي صديقـاً لها في الوقت ذاته . قد يتراءى ذلك لانسـان سطحي ، ولكن ليس لمن اعتـاد تأمـل المعضـلات الانسـانية ، توجد في المجتمع شرائح أفقية قوامها اشخاص ذوو اذواق متماثلة ، واللقاءات العرضية (؟) في أوسـاطهـا ليست نادرة ، وبصـورة خاصـة عندما تكون بعض صفات الأقليات سبباً في تكون تلك الشرائح . حدث أن عثرت على شخص في أحد احياء برلين ، ومن ثم صادفتـه في ركن صغـير يكـاد يكـون مجهـولاً في ايطاليا وأخيراً ، التقيته في احـدى مكتبـات بوينس أيـرس . فهل من المعقول ان نعزو هذه اللقاءات المتكررة إلى الصدفة . . ؟ . لكن أقول شيئاً مبتذلاً لا يدركه أي شخص من هواة الموسيقا ولغة الاسبرانتو وتحضير الأرواح .

إذن لا بد من الاستسـلام باستحيـاء شديـد لامكانية اللقاء في الشارع . يا للشياطين بعض أولئك الرجال ، كيف يقومون باعتراض امرأة لمبادلتها الحديث ، وحتى للقيـام بمغـامرة معها؟ لقد صرفت النظر نهائياً عن أي تفكير ينطلق من أن أقـوم بالمبـادرة ذلك أن جهلي بهذا الاسلوب السوقي ، وسحنتي ، دفعاني إلى اتخاذ هذا القرار النهائي الكئيب .

ولم يتبقَ أمـامي سوى انتظـار فرصـة سعيدة من تلك التي تسنح مرة من بين ملايـين المـرات وهي : ان تتكلم هي معي أولاً ، وذلـك مما جعـل سعـادتي معلقة على ورقـة يانصيب ذات حظ ضئيـل في الـربـح ، كأن يترتب ان تفـوز في سحب أول ، كي تنـال حق الاشـتراك في سحب ثان ، ولا تربـح الجـائزة إلا إذا فازت في السحب الثـاني . كان لا بد فعـلاً من أن تسنـح فرصـة اللقـاء بها ، ومن ثم فرصة

اخرى أبعد احتمالاً وهي ان تبادرني الكلام. شعرت بالدوار والحزن واليأس، ومع ذلك مضيت في الاعداد لموقفي.

وتصورت أنها كانت تتحدث معي لتسألني عن عنوان، أوعن موقف حافلة مثلاً. وانطلاقاً من العبارة الاولية هذه كونت ـ طيلة اشهر من التأمل والكآبة والغضب والاهمال والامل ـ سلسلة لا نهاية لها من التصورات المتنوعة. كنت في بعضها ثرثاراً متبذلاً (في الواقع، لست كذلك أبداً). وكنت في بعضها زاهداً، وفي بعضها الآخر كنت اتصور نفسي فرحاً. ما هوفي منتهى الغرابة، انني كنت أجيب أحياناً، بفظاظة وحتى بغيظ مكظوم ، على سؤال تطرحه، وحدث (في تلك اللقاءات التي كانت تتم في الخيال المحض) ان أحبط اللقاء ما كان ينتابني من غضب سخيف ناجم عما كنت أوجهه إليها من لوم فظ اثر استشارة ما تبدر عنها كنت أعتبرها عقيمة أوهوجاء. كانت هذه اللقاءات الفاشلة تخلّف في نفسي مرارة عميقة، وكنت خلال ايام متعددة الوم بلاهتي التي كانت تؤدي بي إلى اضاعة فرصة نادرة لاقامة علاقات معها، ولحسن الطالع، كان الأمر ينتهي بي إلى أن أدرك ان كل ذلك لم يكن سوى ضرب من الخيال، وأن الفرصة الحقيقية ـ على الأقل ـ ما زالت باقية ولذا كنت أعود إلى التأهب بمزيد من الحماس، وإلى تصور محاورات سوقية جديدة اكثر جدوى. كانت الصعوبة الكبرى تكمن ـ بصورة عامة ـ في ربط سؤالها بامر بالغ الشمول، وبعيد عن الهموم اليومية كالماهية العامة للفن، او الانطباع الذي خلفته نافذتي لديها وبالطبع من الممكن دوماً ـ لو توفر الوقت والهدوء ـ إقامة هذا النوع من الربط بصورة منطقية وبدون قسر، ففي مناسبة اجتماعية مثلاً، يفيض من الوقت ما يكفي لاقامة صلات من هذا الطراز بين موضوعات متنوعة لا رابط بينها، وانما، في شارع عام مزدحم من شوارع بوينس ايرس، حيث يتراكض الناس افواجاً يدفع بعضها البعض الآخر، يجب صرف النظر عن هذا النوع من الحديث. ولكن لم يكن بوسعي صرف النظر عنه من دون أن أقع في موقف لاخلاص لي منه .لذا عدت التخيل محاورات على جانب أكبر من الفاعلية والفطنة، بدءاً من عبارة: أين يقع مركز البريد؟ وانتهاءاً بمناقشة

بعض معضلات التعبير ية والواقعية.ولم يكن ذلك بالأمر السهل أبداً.

في ليلة مؤرقة توصلت إلى نتيجة مفادها ان محاولة الشروع في محادثة كهذه امر مصطنع ولا فائدة منه، وانه من الأفضل اقتحام النقطة المركزية فجأة بسؤال جريء، والمراهنة بكل شيء على رقم واحد، فقط، كأن اسأل مثلاً: لماذا نظرت إلى النافذة وحسب؟ لقد الفت ان يكون تصميمي في الليالي المؤرقة اشد مضاء منه عندما يحل النهار. وفي اليوم التالي، عندما فكرت في تلك الامكانية بهدوء انتهيت إلى انني قد لا امتلك الجرأة لأباغتها بهذا السؤال الصريح ابداً. وكما يحدث دوماً، فقد دفع بي الاحباط إلى الموقف النقيض، فتصورت سؤالاً غير مباشر ـ كأن اسألها مثلاً: هل تهتمين بالفن..؟ بيد ان النقطة التي اود الوصول إليها عبر هذا السؤال (النافذة)، تتطلب باديء ذي بدء ان تربطني بها صداقة متينة كي اتمكن من توجيهه.

لا اتذكر الآن جميع التصورات المتعددة التي راودتني، انما اذكر ان بعضها كان معقداً لدرجة تجعله عديم الفائدة عملياً. إذ ستكون صدفة عجيبة جداً ان يصنع مقدماً مفتاح بالغ التعقيد، ليتطابق مع قفل يجهل صانع المفتاح شكله. عندما كنت اتفحص التصورات الكثيرة المعقدة، كنت انسى ترتيب الاسئلة والاجوبة، أو امزجها، كمن يحفظ عن ظهر قلب العاباً على لوحة شطرنج. وكان يحدث احياناً كثيرة أن أحل عبارة من تصور ما، مكان عبارة من تصور آخر، مما كان يؤدي إلى نتائج مثيرة للضحك أومثبطة للهمة، كأن اعترضها لاعطيها عنواناً أو ابادرها السؤال: هل تهتمين جداً بالفن..؟ كان ذلك مضحكاً حقاً.

عندما كنت أصل إلى هذه الحالة، كنت ارتاح بضعة أيام من عبء خلط تلك التراكيب والتصورات.

حين رأيتها تسير على الرصيف المقابل، تراكمت جميع التصورات المختلفة واختلطت في رأسي. شعـرت ان عبـارات كاملة، من تلك التي تمت صيـاغتهـا ودراستهـا خلال تدريبـات الاعـداد الطويلة، كانت تنبثق في وعيي مشوشة: هل تهتمين كثيراً بالفن؟ لماذا نظرت إلى النافذة؟.. وباصرار بالغ لا مثيل له، انبثقت عبـارة، كنت قد نبـذتهـا لسماجتها، وراحت ـ في تلك اللحظة ـ تغمرني بالخجل وتشعرني بالتفاهة:

ـ هل يعجبك كاستيل؟

ظلت العبارات، منفردة ومختلطة، تشكل لغزاً صاخباً دائم الحركة، إلى أن ادركت ألّا جدوى من استمـرار القلق: تذكـرت انـه يتعـين عليها هي ان تبادرني الكلام، ومنذ تلك اللحظة شعرت بغباء ان الارتياح يغمرني، واعتقد ان الأمر قد وصل بي إلى أن افكر بغباء ايضاً: «هيا بنا نرى كيف ستتدبر الأمر الآن..».

ورغم ذلـك، كنت اشعـر بقلق وانفعال شديدين، يدفعاني لمتابعة خطواتها على الـرصيف المقـابـل، من دون ان أعي انه كان من الأولى بي أن اعبر الشارع إلى الـرصيف الآخـر، وادنـو منها بحيث اتيح لها فرصة مؤاتية للسؤال عن عنوان ما، هذا إذا كنت افترض انه يتعين عليها هي ان تبادرني الكلام، وإلّا فهل يوجد ما هو ادعى للسخرية فعلاً من أن اتخيلها تصيح من بعيد لتسألني عن عنوان ما.

ماذا يجب علي أن افعـل...؟... إلى متى سيستمـر هذا الـوضع...؟ شعرت بتعاسة لا حدود لها. مشينا بضع مئات من الأمتار، وتابعت سيرها بتصميم.

كنت حزينـاً جداً لكن كان يتعـين علي أن أمضي حتى النهـايـة، فلم يكن باستطاعتي ان ادع الفرصة تضيع بعد انتظار طويل استمر اشهراً. وبينما كنت اغذ السير مسرعاً وروحي تترنح بشدة، احسست بشعور فريد من نوعه: حسبت ان عقلي حشرة عمياء بلهاء وسط سيارة تنطلق بها بسرعة هائلة.

انعطفت في زاويـة شارع سان مارتـين، وسارت بضع خطوات، ثم دخلت إلى مبنى شركـة (ت). وادركت انـه يترتب علي أن احـزم امري بسرعة، فتبعتها رغم شعوري ـ في تلك اللحظات ـ بأنني أقوم بعمل طائش وفظيع.

كانت تنتظر المصعد، لم يكن هناك غيرها. لكن أحداً اكثر مني جرأة نطق من اعماق داخلي بهذا السؤ ال الارعن اللا معقول:

ـ هل هذا مبنى شركة (ت)؟

كانت هنـاك لافتـة تغطي كامل الواجهة على طول بضعة امتار، تدل على ان المبنى يعود إلى شركة (ت) فعلاً.

ومع ذلك، استدارت ببساطة، وردت بايجاب. (فيما بعد، فكرت بسؤ الي وببسـاطـة وهدوء جوابها، فتوصلت إلى انه يحدث مراراً ألّا يرى المرء لافتات مهما كانت كبيرة، ولذا فإن السؤ ال لم يكن سخيفاً للغاية، كما كنت اتصور للوهلة الأولى).

ولكنهـا مأن رأتني حتى اعـتر ى وجههـا احمرار شديد، فأدركت عندئذٍ أنها عرفتني. لم اكن قد تخيلت مثـل هذا المـوقف من قبـل اطـلاقـاً، لكنني وجدت انه منطقي جداً، ذلك ان صورتي كانت قد ظهرت في مجلات وصحف مرات عديدة.

ومن شدة انفعالي اندفعت لأوجه سؤ الاً بائساً آخر فقلت فجأة:

ـ لماذا اعتر ى وجهك الاحمرار...؟

ازداد وجهها تضرجاً، وربما كانت على وشك ان تجيب عندما اردفتُ بتهور أقول بعد ان فقدت القدرة على التحكم بنفسي تماماً:

ـ لقد تضرج وجهك لأنك عرفت من أنا، وتعتقدين ان هذا ما هو إلا محض صدفـة، لكنـه ليس صدفـة، ليست هناك صدف اطلاقاً، لقد فكرت فيك طيلة شهـور عديـدة واليـوم، عثـرت عليك في الشارع، وتتبعت خطاك. لدي امر هام أريد أن أسأل عنه، أمر يتعلق بالنافذة هل تفهمين؟

أصابها الذعر، وتلعثمت وهي تتمتم:

ـ النافذة. . . ؟ . . . اية نافذة. . ؟

واحست برجلي تتداعيان. امن الممكن ألا تتذكرها . . . ؟ لم تكن تعيرها أي اهتمام إذن، كانت تنظر إليها بفضول محض. شعرت بتفاهتي، وفكرت بينما يلفني الدوار، ان كل ما كنت اتخيل وافعل خلال تلك الشهور (بما في ذلك هذا الموقف)، كان في منتهى الطيش والتفاهة، وليس سوى بناء خيالي ابتدعته تصبوراتي المعهودة بغطرسة تشبه تلك المحاولات التي تبذل لاعادة ترميم ديناصور، بدءاً من فقرة عظمية محطمة، واحدة فقط.

كادت دموع الفتاة تنهمر. وحسبت ان العالم يتداعى من حولي، وفقدت القدرة على التصرف بهدوء وفعالية. ووجدتني أقول اشياء أخجل من كتابتها الآن.

ـ أرى انني اخطأت. طاب مساؤك.

وخرجت مسرعاً اسير على غير هدى، كنت قد قطعت حوالي مئة متر عندما سمعت صوتاً من ورائي ينادي:

ـ يا سيد. . يا سيد. .

كانت تتبعني من دون ان تجرؤ على اعتراضي، كانت تقف هنالك لا تدري كيف تبرر ما حدث. قالت بصوت خافت:

ـ اعذرني يا سيدي. . اعذر غبائي. . لقد كنت في غاية الذعر.

كان العالم قد تحول منذ لحظات إلى فوضى من الأشياء والمخلوقات التافهة وشعرت انه عاد يتشكل وينتظم من جديد. رحت اصغي إليها بصمت عندما استأنفت تقول وهي ترتجف:

ـ لم ادرك انك كنت تسأل عن منظر اللوحة

امسكت بذراعها بلا وعي، وقلت:

ـ تتذكرينها اذن. . . ؟

ظلت صامتة برهة وهي تطرق إلى الأرض، ثم قالت ببطء:

ـ انني اتذكرها باستمرار.

حدث بعــد ذلــك أمر غريب. بدت كما لو/أنهــا ندمت على ما قالتــه، فاستــدارت فجأة، وانـدفعت راكضة. وما ان وعيتُ المفاجأة، حتى وجدتني أعدو خلفهــا، لكنني سرعــان ما ادركت سخــافــة هذا المشهـد، فتلفتت إلى جميـع الاتجـاهـات، ثم تابعت السـير بصـورة طبيعيـة انـما بخطى حثيثة. قمت بذلك لسببـين اولهـما لأنني وجـدت أنه من المضحك حقاً، ان يركض رجل معروف مثلي وراء فتاة في الشارع، وثانيهما وهو الأهم لأنه لم تكن هناك ضرورة لذلك، فقد كان باستطـاعتي ان أراهـا في أي وقت، عنـد دخـولهـا المكتب أو خروجهـا منه. فلماذا الجري وراءها كالمجنون اذن. . . ؟

والمهم. ما هو مهم حقـاً، أنهـا كانت تتـذكـر منظر النافذة: «كانت تتذكره باستمـرار» كنت سعيـداً، ووجـدتني اهـلاً للقيـام بأعـمال عظيمـة، انـما انحيت بالـلائمــة على نفسي لارتبــاكي أمــام المصعـد، ومن ثم لأني جريت وراءهــا كالمجنون، في حين كان بوسعي أن أراها في المكتب في أي وقت.

«في المكتب. . ؟». . تساءلت فجأة بصوت مرتفع يقارب الصياح، بينما شعرت ان رجلي تتداعيان من جديد. من قال انها تعمل في ذلك المكتب. . ؟. . ألا يدخل المكاتب إلا الذين يعملون فيها فقط. . ؟. كانت فكرة ضياعها لعدة أشهر اخرى أو ربما إلى الأبد تسبب لي الدوار، فاندفعت اسير بلا وعي، كمن فقد الامل، وسرعان ما وجدتني امام مدخل شركة (ت). لكنني لم اعثر لها على اثر. اتراها صعدت. . . ؟ فكرت ان اسأل عامل المصعد، ولكن. . كيف اسأله؟، من المحتمل ان فتيات كثيرات صعدن، وقد يترتب علي ذكر بعض التفاصيل. ماذا سيظن عامل المصعد؟ مشيت على الرصيف حائراً هنيهة ثم عبرت الشارع إلى الرصيف المقابل، ورحت اتفحص واجهة المبنى من دون أن ادرك السبب. أكان ذلك بدافع من أمل مبهم في أن ارى الفتاة تطل من احدى النوافذ. . . ؟. ولكن ليس من المعقول ان أفكر بأنها سوف تطل لتومىء إلي، أو لتقوم بشيء من هذا القبيل. لم ار سوى اللافتة الضخمة تقول:

شركة (ت)

قدرت بالنظر أنها تغطي حوالي عشرين متراً من واجهة المبنى، فزادتني هذه العملية الحسابية احساساً بالغم. ليس لدي الكثير من الوقت الآن لاستسلم لهذا الاحساس،فيما بعد سوف استسلم للعذاب بهدوء. ولم أجد امامي، في تلك اللحظة، سوى ان ادخل المبنى، فتسللت اليه بعزم، وانتظرت هبوط المصعد. غير أني لاحظت انه بقدر ما كان يقترب، كان تصميمي يتضاءل، وخجلي يتنامى، واضطرابي يشتد، وما ان فتح الباب حتى وجدتني مصمماً على ألا أتفوه بأية كلمة. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا استقل المصعد اذن؟ كان يصعب ألا أقوم بذلك بعد انتظار طويل على مرأى من اناس آخرين. كيف يمكن ان يؤولوا تصرفاً كهذا. . . ؟ لم أجد حلاً سوى أن أدخل مع الداخلين محافظاً بالطبع على قراري بألا أتفوه بأية كلمة، وهذا امر ميسور تماماً، بل وعادي أيضاً، إذ من

المفترض ألا يُلزم احد بان يتحدث داخل المصعد، وإذا كان المرء صديقاً للنادل، فمن الطبيعي في هذه الحالة أن يسأله عن الطقس، او عن حالة ابنه المريض. ولكن بما انه ليس لي أية علاقة مع هذا الرجل ولم يسبق لي أن رأيته، حتى هذه اللحظة، فلن ينجم عن تصميمي على الصمت أية تعقيدات، كما أن وجود عدة أشخاص داخل المصعد كان يسهل علي ان اتصرف بلا أي حذر.

دخلت المصعد بهدوء، وسارت الأمور على ما يرام كما كنت أتوقع، تحدث احدهم مع النادل عن الحر الشديد المشبع بالرطوبة، مما زادني انشراحاً، واكد صحة تصوراتي، عانيت من اضطراب طفيف عندما قلت: «الطابق الثامن». لا يمكن لأحد أن يكون قد لاحظ ذلك، إلا إذا كان على بينة من الغاية التي كنت أسعى اليها في تلك اللحظة.

عندما وصلت إلى الطابق الثامن، رأيت شخصاً آخر يخرج معي، مما عقّد الوضع قليلاً فشرعت اسير ببطء، منتظراً دخوله إلى احد المكاتب، بينما كنت أتمشى على طول الممر عندما دخل تنفست الصعداء، وتجولت قليلاً حتى بلغت اقصى الممر، والقيت نظرة على مشهد بوينس ايرس من احد النوافذ، ثم عدت ادراجي لاستدعي المصعد. بعد قليل وجدت نفسي عند باب المبنى من دون ان يحدث أي امر مقلق مما كنت اتوقع (اسئلة غريبة من عامل المصعد مثلاً..). تناولت لفافة، وما ان اشعلتها، حتى ادركت ان اطمئناني كان امراً في منتهى السخافة، صحيح انه لم يحدث اي امر مكدر، لكن الصحيح أيضاً أنه لم يحدث أي شيء على الاطلاق، وبعبارة اخرى اكثر صراحة: ان لم تكن الفتاة مستخدمة في تلك المكاتب، فلا بد انني ضيعتها، فإذا كانت قد دخلت لتقوم بمهمة بسيطة، فمن الممكن ان تكون قد صعدت، ثم نزلت من دون ان التقي بها، «وفكرت طبعاً انها إذا كانت قد دخلت من أجل المهمة فمن الممكن أيضاً ألا تكون قد انجزتها في وقت قصير كهذا». وشجعني هذا الخاطر من جديد، فقررت الانتظار امام المبنى.

لبثت ساعة انتظر بلا جدوى، ورحت ادرس شتى الاحتمالات الممكنة:

١ ـ إذا كانت المهمة تستغرق وقتاً طويلاً، ففي هذه الحالة، ينبغي علي ان استمر في الانتظار.
٢ ـ إذا كانت مضطربة جداً بعد الذي حدث، وذهبت للقيام بجولة قبل ان تقوم بالمهمة. فيترتب علي الانتظار أيضاً.
٣ ـ لعلها تعمل هناك، وفي هذه الحالة ينبغي علي أن انتظر حتى ساعة خروجها.

فالانتظار إذن يتفق مع الاحتمالات الثلاثة.

بدا لي ان هذا المنطق متماسك جداً، وأثار في طمأنينة قررت معها، بشكل جدي وهادىء، ان انتظر في المقهى في زاوية الشارع، حيث كان باستطاعتي مراقبة خروج الناس من المبنى. طلبت كأساً من الجعة، كانت الساعة حينذاك تشير إلى الثالثة والربع.

وبقدر ما كان الزمن يمضي، كان يتأكدلديَّ الافتراض الأخير بأنها تعمل هناك. وعند الساعة السادسة بدا لي أنه من الأفضل أن انتظر امام المبنى، إذ من المؤكد ان الكثيرين سيخروجون دفعة واحدة، وقد لا اتمكن من رؤيتها لو بقيت في المقهى. فنهضت.

بعد الساعة السادسة بدقائق، بدأ الموظفون بالانصراف. وعند الساعة السادسة والنصف، كان اكثرهم قد انصرف، وبدأ عددهم يتضاءل شيئاً فشيئاً. وما ان بلغت الساعة السابعة إلا ربعاً حتى لم يكد يخرج احد سوى بعض كبار الموظفين. وفكرت، لعلها هي الأخرى من كبار الموظفين (مستحيل). او سكرتيرة احد كبار الموظفين، «هذا ممكن» وراح هذا الخاطر يبعث في أملاً ضئيلاً.

عندما كانت الساعة تشير إلى السابعة، كان كل شيء قد انتهى.

بينما كنت عائداً إلى منزلي يتملكني احباط عميق، حاولت ان أفكر بوضوح. رأسي مرجل يغلي، لكن عندما تتوتر أعصابي، تتوارد الأفكار في ذهني بحركات دورانية كرقصة بالية، ورغم ذلك، أو ربما بسبب ذلك بالذات، اعتدت على التحكم بأفكاري بصرامة وعلى ترتيبها بدقة، واعتقد أنه لو لم يكن الأمر كذلك، لكنت قد اصبت بالجنون منذ زمن بعيد.

عدت إلى المنزل - كما قلت - وأنا في حالة احباط عميق، غير اني لم اتخل - رغم ذلك - عن ترتيب وتنسيق أفكاري، فقد شعرت بالحاجة إلى التفكير بوضوح، وإلا فقدت إلى الأبد، الشخص الوحيد الذي كان - بكل تأكيد - يفهم لوحتي.

فهي إما أن تكون قد دخلت المكتب لتقوم بمهمة ما، أو لأنها كانت تعمل هناك. ولم يكن ثمة احتمال آخر. وهذا الافتراض الاخير هو الاوفر حظاً. وإذا كان الأمر كذلك، فلعلها، عندما تركتني وولت هاربة احست بالقلق، فقررت العودة إلى منزها، وكان من الضروري إذن أن أنتظرها في اليوم التالي أمام مدخل المبنى.

درست فيما بعد، الاحتمال الآخر وهو قيامها بالمهمة، فقد يكون ما حدث فعلاً هو أنها انزعجت من اللقاء، فعادت إلى منزلها، وقررتْ تأجيل المهمة إلى اليوم التالي، وفي هذه الحالة يترتب علي ان انتظرها امام مدخل المبنى ايضاً.

كان هذان الاحتمالان مواتيين، ولكن خطر لي احتمال آخر أثار في الرعب فعلاً وهو ان تكون قد انجزت مهمتها حينما وصلت إلى المبنى، وانصرفَتْ خلال مغامرتي في المصعد، صعوداً وهبوطاً، من دون أن يلتقي احدنا الآخر، لكن الوقت الذي استغرقه كل ذلك كان قصيراً، وقد لا تكون الأمور قد جرت على هذا النسق، انما يمكن ان تكون قد حدثت هكذا، إذ قد تكون المهمة المعهودة

تسليم رسالة مثلاً. ورأيت والحالة هذه ألّا جدوى من العودة لانتظارها في اليوم التالي.

ومع ذلك كان قد تبقى لي الاحتمالان المواتيان، فرحت اتشبث بهما تشبث اليائس.

وصلت إلى منزلي تتنازعني مشاعر شتى. فكلما كنت أفكر بتلك العبارة التي قالتها لي «اتذكرها باستمرار» كان قلبي يخفق بعنف، واحس أن فرصة مبهمة، لكنها هائلة ورحبة قد فتحت امامي، وأشعر أن قوة عظيمة كانت ما تزال كامنة فيّ حتى تلك اللحظة، سوف تنطلق. وكنت أتصور انه قد يمضي زمن طويل قبل ان اعثر على الفتاة، لكن كان لا بد لي من أن أعثر عليها. ووجدتني اردد بصوت عالٍ:

«لا بد لي... لا بد لي!».

في ساعة مبكرة، من صباح اليوم التالي، كنت أقف امام مدخل مكاتب شركة (ت). دخل الموظفون جميعاً، لكنها لم تظهر. كان من الواضح إذن، انها لا تعمل هناك وان تبقى افتراض واه بأن تكون قد اصيبت بمرض يستدعي غيابها عن المكتب عدة أيام.

كما تبقى أيضاً، احتمال آخر هو احتمال المهمة، الذي جعلني اقرر الانتظار طيلة الصباح في المقهى.

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة والنصف حين رأيتها تخرج من باب محطة المترو وبعد ان كنت قد فقدت الامل نهائياً،فانتابني هيجان مريع وأنا اندفع للقائها، وما ان رأتني حتى تسمّرت في مكانها كتمثال من حجر. من الواضح أنها لم تكن تحسب لمثل هذا اللقاء حساباً. والغريب، ان مجرد شعوري بان عقلي يعمل بدقة صارمة، كان يمدني بطاقة خارقة: كنت اشعر بالقوة، واحس بان مسا من تصميم رجولي يتملكني، وأن لديَّ استعداداً مطلقاً للقيام بأي عمل، فأمسكت بذراعها بقسوة من دون أن أنبث ببنت شفة. وسحبتها عبر شارع سان مارتين باتجاه الحديقة. بدت فاقدة الارادة، ولم تنطق بأية كلمة.

كنا قد قطعنا حوالي مئتي متر عندما سألتني:

- إلى أين تأخذني...؟

فاجبتها بينما أتابع السير بتصميم، وأنا لا أزال أجرها من ذراعها:

- إلى حديقة «سان مارتين». لديَّ أمور كثيرة لأتحادث وإياك.

تمتمت بكلمات ذات صلة بشركة (ت)، لكنني تابعت طريقي وأنا أجرها من دون ان أعي شيئاً مما تقول. ثم اردفت:

- يجب أن أتحدث وإياك بأمور كثيرة.

لم تبد أية مقاومة. كنت أحس كأنني نهر عرم يجرف امامه غصناً. وصلت

إلى الحديقة وبحثت عن مقعد منعزل وبادرتها السؤ ال:

ـ لماذا هربت. . . ؟

رمقتني بنظرة تنم عن ما لاحظته في عينيهـا قبـل يوم مضى، حينما قالت لي: «اتذكرها باستمرار» كانت نظرة غريبة، ثابتة، خارقة، بدت لي آتية من الماضي، كانت تذكـرني بشيء ما، بعينـين شبيهتـين،ولكن لم يكن في وسعي أن أتـذكر اين رأيتهما. ثم قالت:

لا أعرف، واود أن اهرب الآن أيضاً.

قلت وأنا اضغط على ذراعها:

ـ عديني بأنك لن تختفي ثانية، احتاج اليك كثيراً. أنا في أمس الحاجة اليك.

عادت ترمقني بنظرتها المتفحصة من دون ان تقول شيئاً، ثم راحت تصوب عينيها على شجرة بعيدة.

لم يكن شكلهـا يذكـرني بشيء. كان محيـاهـا رائعـاً لكنـه ينم عن بعض القسوة، وكان شعرها طويلاً كستنائياً، ومظهرها الخارجي لا يدل على أنها تتجاوز السادسة والعشرين من العمر، إلا أن شيئاً ما كان يوحي بأنها أكبر عمراً، شيئاً ما اصيـلا في شخص عاش طويـلاً، لا هو المشيب، ولا أي من تلك الـدلائل المادية الخـالصـة، وانما شيء ما مبهم ومن طبيعة روحية حتماً، لعله النظرة. . ولكن إلى أي حد يمكن القول ان نظرة مخلوق بشري هي شيء مادي. . . ؟ بل لعله شكل اطباقه الفم! نعم، ولكن، رغم ان الفم والشفتين هما من العناصر المادية، إلا أن اسلوب اطبـاقهـما، وبعض التجعيدات هي أيضاً من العناصر الروحية. لم أتمكن من ان احدد في تلك اللحظة ماذا كان بالضبط ذلك الشيء الذي أوحى إلي بتلك الصورة عن عمرها كما انني لا استطيع ان احدد الآن. اظنه طريقة حديثها ايضاً، ورحت اردد:

ـ انني في أمس الحاجة اليك.

لم تجب. وظلت تنظر إلى الشجرة البعيدة، فسألتها:

ـ لماذا لا تتكلمين:

فاجابت من دون ان تحول نظرتها عن الشجرة:

ـ من اكون انا...؟... انت فنان كبير ولا أدري كيف يمكن أن تكون بحاجة إلي.

فصرخت في وجهها بقسوة:

ـ قلت لك إنني احتاج اليك، ألا تفهمين؟

تمتمت وهي لا تزال تنظر إلى الشجرة:

ـ لماذا ؟

لم اجبها على الفور، تركت ذراعها، واستغرقت في التفكير: فعلاً.. لماذا؟ حتى تلك اللحظة لم أفكر في هذا السؤال بصراحة، انما كنت غالباً، مستسلماً لدوافع غريزية.وبدأت أرسم اشكالاً هندسية على الأرض بغصن صغير.

بعد برهة ليست بقصيرة، تمتمت:

ـ لا أعرف.. حتى الآن لا أعرف.

كنت مستغرقاً في التفكير والغصن في يدي، وبينما راحت الرسوم الهندسية التي اخطها على الأرض تزداد تعقيداً، اخذت اردد:

ـ رأسي متاهة مظلمة يضيء بعض ممراتها ما يشبه وميض البرق احياناً. لن اتوصل إلى ادراك سبب قيامي ببعض التصرفات أبداً... لا... انه ليس كذلك.

شعرت بغبائي الشديد، لم يكن ذلك من شيمي اطلاقاً. بذلت جهداً كبيراً وأنا أفكر، لعلي لست عاقلاً..؟... لا أبداً، كان تفكيري يعمل كآلة حاسبة باستمرار ففي هذه القصة مثلاً: الم اكن قد امضيت شهوراً وأنا أفكر واخلط الافتراضات وانسقها..؟ وبصورة ما الم اعثر ـ في نهاية الامر ـ على ماريا بفضل قدراتي المنطقية...؟ شعرت أنني قريب من الحقيقة. قريب جداً

وخشيت ان افقدها، لقد قمت بجهد هائل حقاً. وصحت:

- ليس الأمر هو أنني لا أحسن التفكير... ! بل على العكس من ذلك تماماً إنني اجيد التفكير دوماً، ولكن، تصوري قبطاناً يقوم في كل لحظة بعملية حسابية لتحديد موقعه ويتابع طريقه نحو الهدف بعزيمة لا تلين. إلا أنه لا يعرف لماذا يتجه نحو ذاك الهدف، أتفهمين؟

تأملتني بحيرة للحظة، ثم عادت تنظر إلى الشجرة من جديد. فاردفت قائلاً:

- أشعر انك ستكونين عنصراً جوهرياً في ما يتوجب علي أن أقوم به، وان كنت - حتى الآن - لا أدرك لذلك سبباً.

وعدت ارسم بالغصن، وأنا ابذل جهداً عقلياً كبيراً، ثم اضفت بعد فترة صمت:

- أول ما يتبادر إلى أن الأمر يتعلق بمنظر النافذة: لقد كنت أنت الإنسانة الوحيدة التي أهتمت به.

فتمتمت:

- أنا لست ناقدة فن... !

صحت ساخطاً:

- لا تحدثيني عن أولئك البلهاء.

استدارت وعلائم الدهشة على وجهها، فرحت اشرح لها بصوت خافت، الاسباب التي تدعوني ألا اثق بناقدي الفن، ونظرية المشرط. وما الى ذلك.

كانت تصغي إلي وهي تنظر إلى البعيد باستمرار. وعندما فرغت، قالت:

- انك تتذمر، لكن النقاد يمتدحونك دائماً.

فقلت حانقاً:

- لكن ذلك اسوأ بالنسبة لي.. ألا تدركين..؟ وهو من الأمور التي تنغصني وتجعلني احس بأنني لا أسير في الطريق الصحيح. فكّري بما جرى في تلك القاعة

مثلاً. لم ينتبه احد من أولئك الثرثارين إلى أهمية ذاك المنظر. شخص واحد فقط اهتم به، وهو أنت، ولو أنك لست ناقدة فن. . لا. . هناك شخص آخر اهتم به أيضاً، ولكن بصورة سلبية، فقد أنحى باللائمة عليَّ، وكان مشمئزاً إلى درجة الغثيان. بينما أنت.

قالت بتؤدة وهي لا تزال تنظر إلى البعيد:

- اوليس من المكن أن أكون قد كونت الرأي ذاته؟

- أي رأي. . . ؟

- رأي ذلك الشخص.

نظرت إليها بقلق، لكن منظر وجهها الجانبي، بفكيها المطبقين، لم يكن ينم عن شيء، فقلت بحزم:

- انك تفكرين كما أفكر.

- وبماذا تفكر. . ؟

- لا أدري ولا أستطيع الإجابة على هذا السؤال، وبالأحرى، يمكنني أن أقول إنك تشعرين كما أشعر.. كنت تتأملين ذاك المنظر، كما لو أنني أنا مكانك أتأمله لا أدري بماذا تفكرين، كما لا أدري بماذا أفكر انا أيضاً، لكنني أعلم أنك تفكرين كما أفكر.

- لكن، ألا تتصور لوحاتك وتفكر فيها قبل أن ترسمها؟

- من قبل، كنت أفكر فيها كثيراً، وابنيها كما يُبنى المنزل، لكن هذا المنظر استثناء، فقد احسست انه يتعين علي ان ارسمه هكذا من دون ان اعرف لماذا ولا زلت لا أعرف، فليست له في الواقع، أية علاقة ببقية اللوحة، واظن ان احد اولئك الأغبياء نبهني اليه. انني اشعر بالضياع، واحتاج إلى مساعدتك، لأنني أعلم انك تشعرين كما أشعر.

- لا أدري تماماً بماذا تفكر.

كاد صبري ينفذ، فاجبتها بجفاء:

ـ ألم أقــل لك إنني لا أعـرف بماذا أفكـر؟ لو أني أستطيـع أن أعـبرّ بكلمات واضحة عما أشعر به، لكان احرى بي أن أفكر بوضوح . أليس كذلك؟

ـ أجل انه كذلك حقاً .

صمتت برهة، وفكرت وأنا أحاول أن أرى بوضوح، ثم اضفت :

ـ يمكنني أن أقول أن جميع أعمالي الفنية السابقة، كانت أكثر سطحية .

ـ أيّ عمل في سابق تعني؟

ـ جميع الأعمال الفنية التي سبقت منظر النافذة .

امعنت التفكير ثانية، ثم قلت :

ـ لا ليس هذا تماماً . . ليس هذا . . ليس انها كانت أكثر سطحية .

ماذا كان يا ترى . . ؟ حتى تلك اللحظة لم يكن قد خطر لي أبداً أن افكر في تلك المشكلة وقـد ادركت تواً، إلى أي مدى كنت أرسم منظـر النـافذة كمن يسير وهو نائم . وكما لو أنني أحدث نفسي أردفت قائلاً :

ـ لا، ليس انها كانت أكثر سطحية . لا أدري، كل هذا له علاقة بالبشرية جمعاء، أتفهمين . . ؟ اذكر أنني قرأت قبل أيام من رسم تلك اللوحة ان معتقلاً في احـد المعسكـرات طلب طعـامـاً، فاجبر وه على أكل فأرة حية، اظن احياناً أن لا معنى لأي شيء . فعلى كوكب صغير، يسير نحو العدم منذ ملايين السنين، نولد وسـط الآلام ونـترعـرع، ونجـاهـد، ونمـرض، ونتألم، ونسبّب الألم للآخـرين ونصخب، ونمـوت، يمـوت أنـاس، في حين يولـد آخـرون، ليبـدأ تكرار الملهاة العقيمة من جديد .

أيكـون الأمـر كذلك حقاً . . ؟ . . . استغرقت في التأمل في هذه الفكرة عن تفـاهـة الأشيـاء وعقمها . هل حياتنا كلها ليست سوى سلسلة من الصرخات المجهولة في صحارى أجرام لا تبالي . . ؟

بعد فترة صمت طويل اضفت :

ـ منظـر الشـاطىء هذا يخيفني، وان كنت أعلم أنه يمثل شيئاً أكثر عمقاً لا

بل أريد أن أقول، انه يمثلني تمثيلاً عميقاً. نعم. . . هكذا. ان الامر لم يتضح بعد، كلا. . لكنه يمثلني تمثيلاً عميقاً.

سمعتها تقول:

ـ ربما كان تعبيراً عن اليأس.

فنظرت بقلق وقلت:

ـ نعم يبدو لي أنه تعبير عن اليأس. ألا ترين انك تشعرين كما أشعر؟.

سألتني بعد لحظات:

ـ وهل يبدو لك أن التعبير عن اليأس يستحق الاطراء؟

فاجأني سؤالها، فرحت أتأملها وقلت:

ـ لا. يبدو لي أنه ليس كذلك. وانت، ماذا تعتقدين؟

ظلت صامتة فترة طويلة، ثم استدارت وسمرت نظراتها في وجهي، وقالت كما لو أنها ترد على سؤالها هي:

ـ ان كلمة اطراء لا مكان لها هنا، ما يهم هو الحقيقة.

فسألتها:

ـ وهل تعتقدين ان هذا المنظر حقيقي؟

فقالت بشيء من التصميم:

ـ من المؤكد انه حقيقي.

تأملت قسمات وجهها، ونظراتها القاسية بقلق، ورحت اسائل نفسي: لم هذه القسوة. .؟ لماذا. . .؟ ولعلها شعرت بقلقي، وبحاجتي إلى المشاركة الوجدانية، فلانت نظرتها لفترة، وبدت كأنها تمد لي جسراً. لكنني شعرت انه كان جسراً مؤقتاً، هشاً، معلقاً فوق هاوية.

وبصوت مختلف اردفت تقول:

لاأدري ماذا ستستفيد من رؤيتي. إنني أسيء إلى جميع الذين يقتربون مني.

مني.

اتفقنا على لقاء قريب. اعتراني الخجل عندما فكرت في أن أصارحها بأنني أود ان ارها في اليوم التالي، او انني اود مواصلة اللقاء بها هناك في المكان ذاته، وانها يجب أن لا تبتعد عني أبداً. ورغم أنني أتمتع بذاكرة خارقة، لكن سرعان مايعتريني شرود محير. لا أدري ماذا قلت لها في تلك اللحظة، انما اتذكر أنها اجابت بانه يتعين عليها ان تنصرف.

اتصلت هاتفياً بمنزلها تلك الليلة. ردت علي امرأة. وحين قلت لها اني اود ان اكلم الآنسة ماريا اريبارني، بدت مترددة للحظة قبل ان تقول انها سترى ان كانت موجودة. وسمعت في الحال صوت ماريا وهي ترد علي بلهجة متكلفة، مما جعلني احس بالضيق. قلت لها:

- ماريّا. لابد أن أراك، لم تمر لحظة واحدة منذ أن افترقنا إلا وأنا أفكر فيك.

توقفت وأنا ارتجف، لم تجب، فقلت بقلق:

- لماذا لا تردين..؟

سمعتها تترك سماعة الهاتف وهي تقول:

- انتظر لحظة.

بعد فترة قصيرة، عدت اسمع صوتها المألوف، وبدا لي انها كانت ترتجف أيضاً. قالت:

- لم يكن في وسعي أن أتكلم.

- لماذا..؟

- هنا يدخل ويخرج أناس كثيرون.

- وكيف يمكنك أن تتكلمي الآن.

- لأنني اغلقت الباب، حينما اغلق الباب يدركون انه يجب عليهم ألا يزعجوني.

عدت أكرر بلهجة عنيفة:

ـ ماريـا، لا بد أن أراك، لم اتمكن منـذ الظهـر من القيـام بأي شيء سوى التفكير فيك.

لم تجب، فسألتها:

ـ لماذا لا تجيبين؟

فترددت وهي تقول:

ـ كاستيل..

فصحت بها غاضباً:

ـ لا تناديني كاستيل

فعادت تقول باستحياء:

ـ خوان بابلو..

وشعرت مع هاتين الكلمتين بسعادة لا حدود لها، إلا أن ماريا توقفت عن الكلام ثانية، فسألتها:

ـ ماذا جرى...؟ لماذا لا تتكلمين..؟

فتمتمت:

ـ وأنا أيضاً..

سألتها بقلق:

ـ وانت ايضاً.. ماذا..؟

فقالت:

ـ وأنا أيضاً لم يشغلني أمر سوى التفكير.

فتابعت اسألها بنهم:

ـ وبماذا تفكرين..؟

ـ بكل شيء.

ـ بكل شيء..؟ كيف..؟ أي شيء..؟

ـ في غرابة كل هذه الأمور . . لوحتك، لقاء الأمس، واليوم . . ما ادراني . . ان عدم الدقة يثير ني دوماً، فأجبتها:

ـ نعم، قلت لك إني لم أفكـرُ إلا فيـكِ أنتِ، ولكنـك لم تقـولي إنـك كنت تفكرين في أنا.

انقضت فترة قبل ان تجيب:

ـ أقول لكَ إني أفكر في كل شيء.

ـ لكنك لم تذكري التفاصيل.

ـ لأن كل ذلـك بالـغ الغـرابـة . . لقـد كان غريباً حقاً. اني حائرة جداً لقد فكرت فيك طبعاً.

خفق قلبي بشـدة. كنت أود معـرفـة التفـاصيل، فالتفاصيل تثير ني وليس العموميات فسألتها بنهم بالغ:

ـ لكن كيف. كيف؟ . . لقـد فكرتُ في كل ملمح من ملامحك، في وجهك حينـما كنت تنظـرين إلى الشجـرة، في شعـرك الكستنـائي، في نظراتك القاسية، وكيف كانت تلين فجأة في مشيتك.

قاطعتني فجأة:

ـ يجب علي أن أنهي الحديث. ارى أناساً مقبلين

عاجلتها بالقول:

ـ سأتصل بك صباح غد.

فأجابت بسرعة:

ـ حسناً.

قضيت ليلتي قلقاً، لم استطع أن أرسم او أن استعمل الفرشاة، رغم كل ما بذلت من محاولات لبدء عمل ما. خرجت من المنزل، وسرعان ما وجدتني اتمشى في شارع كورينتس،اعتراني عارض في غاية الغرابة، فقد كنت انظر إلى جميع الناس بلطف. اظنني سبق وقلت اني سأقوم بسرد هذه القصة بامانة مطلقة، وسأقدم الآن أول برهان على ذلك باعترافي باحد اسوأ عيوبي:

اني أنفر من الناس دوماً، وانظر إليهم باشمئزاز ايضاً، وبصورة خاصة عندما يجتمعون على شكل جمهور، لا أحتمل الشواطىء في الصيف أبداً، كنت أميل إلى بعض الرجال وإلى قلة من النساء، واحبهم حباً جماً، وكنت اشعر باعجاب نحو البعض (لست حسوداً)، وبالتعاطف نحو البعض الآخر، وأما الأطفال فقد كنت دوماً أشعر بعطف وحنو نحوهم (وبصورة خاصة عندما أحاول جاهداً نيسان انهم - في نهاية الأمر - سيصبحون كباراً كالآخرين). ولكن البشرية بوجه عام كانت تبدو لي بغيضة دوماً. ولا يحرجني ان أعلن أن مجرد ملاحظة بعض الملامح والاسارير كانت تمنعني من الأكل طيلة النهار أو من الرسم طيلة أيام.

انه لمن الغريب حقاً أن نجد الجشع، والحسد، والعجرفة، والفظاظة، والشره، وبصورة عامة، كل تلك المجموعة من الصفاف التي تصوغ الطبيعة الانسانية وقد تجسدت في وجه، أو في مشية، أو في نظرة. ويبدو لي انه من الطبيعي بعد لقاء كهذا ان يفقد المرء شهيته للطعام، أو الرسم وحتى العيش ايضاً. ومع ذلك أود التأكيد انني لا أفخر بهذه الصفة، إذ أعلم انها دليل على الصلف، واعلم أيضاً ان نفسي كانت كثيراً ما تفيض بالجشع، والعجرفة والفظاظة، لكنني قلت اني سأروي هذه القصة بامانة مطلقة، وهكذا سأفعل.

في تلك الليلة بدا لي كأن احتقاري للبشرية قد تلاشى، او انه - على

الاقـلْ ـ قد اختفى مؤقتاً. دخلت مقهى مارسـوتّـو، واظنكم تعلمون ان الناس يذهبون إلى هناك لسماع موسيقا التانغو، وهم يصغون اليها كمؤمن بالله يصغي إلى نشيد الآلام للقديس متى.

- ١٢ -

في صبـاح اليـوم التـالي، وعنـدما قاربت الساعة العاشرة، اتصلت بمنزلها هاتفيـاً. اجـابتني المـرأة التي تولت الـرد أمس. ولمـا سألت عن الأنسة ايريباريني، قالت انها سافرت إلى الريف منذ الصباح. اذهلني ما سمعت فسألتها:

- إلى الريف؟

- نعم ياسيدي. هل انت السيد كاستيل..؟

- نعم أنا كاستيل.

- تركت لك رسالة هنا وطلبت المعذرة لأنها لم تكن تعرف عنوانك.

لقـد علقت آمـالاً كبيرة على رؤيتها في ذلك اليوم، وكنت انتظر من اللقاء اموراً بالغة الأهمية، بيد أن ذلك كله تلاشى لدى سماع نبأ سفرها. وراحت تخطر لي سلسلة من الأسئلة:

لماذا قررت الذهاب إلى الريف..؟.. من الواضح أنها عزمت على ذلك بعد حديثنا الهاتفي، ولو لم يكن الأمر كذلك، لانبأتني بنيتها في السفر، ولما كانت تستجيب إلى طلبي في الاتصـال بها في اليـوم التـالي. ولكن، إذا كانت قد قررت الـذهـاب بعـد حديثنـا الهاتفي، ايمكن أن تكون المكالمة سبب ذلك القرار؟ وإذا كان الأمـــر كذلـك فلماذا..؟ أكـانت تود الهـرب مني مرة أخـرى...؟ أم كانت تخشى من لقائنا في اليوم التالي..؟

ايقظ سفرها المفاجىء إلى الريف بوادر الشك في نفسي، وبدأت - كما هي عادتي - أعثر على تفاصيل مريبة لم أكن أعيرها اهتماماً من قبل.

ماذا كانـت تخفـي وراء ذاك التبـايـن في صوتهــا خلال حديثنــا الهــاتفي أمس...؟ من كان أولئـك النـاس الـذين «يـدخلون ويخـرجـون» ويحولون دون أن تتكلم بصـورة طبيعيـة...؟ ثم إن ذلك يبرهن أيضاً على أنها تتقن التصنع. ولماذا ترددت تلك المرأة عندما سألت عن الآنسة ايريباريني..؟ لكن قولها: «عندما

اغلق الباب يدركون انه يتعين عليهم ألا يزعجونني» قد سجل في ذاكرتي كما لو انه حفر بمادة حمضية. وجعلني افكر بما نخيط بهاريا من الظلال والشكوك.

خطـرت لي هذه الأفكـار ـ لأول مرة ـ حين كنت اسـرع في طريقي إلى مرها. والغريب أنها لم تسأل عن عنواني، رغم أني كنت أعرف عنوانها ورقم هاتف منزلها، كانت تقطن في شارع بوساداس، قريباً من زاوية شارع سيفر.

عندما وصلت الطابق الخامس وضغطت على زر الجرس شعرت بأن نفسي مفعمة بعاطفة جياشة.

فتح البـاب خادم بدا كأنـه بولـوني، أو شيء من هذا القبيـل. وعنـدما عرفته بنفسي قادني إلى قاعة صغيرة غاصة بالكتب. كانت الرفوف تغطي جدرانها حتى السقف، كما ان كتبـاً كثيـرة كانت مكدسة فوق طاولتين صغيرتين، وفوق احدى الأرائك أيضاً، وقد استرعى انتباهي ضخامة حجم الكثير من الاجزاء.

وقفت ألقي نظـرة في المكتبـة، لكني شعـرت فجأة أن أحـداً كان من خلفي يراقبني بصمت، استدرت وإذا برجل في آخر القاعة، طويل القامة نحيل الجسم، مليح المحيا يبتسم وهو يتطلع صوبي، بيد أن نظراته لم تكن مسددة نحوي تماماً. ورغم ان عينيه كانتا مفتوحتين فقد ادركت تواً انه اعمى. وادركت سر تلك الكتب ذات الحجم الكبير غير المألوف.

قال بود وهو يمد لي يده:

ـ انت السيد كاستيل.. أليس كذلك؟

ـ نعم يا سيد ايريبارني.

مددت يدي اصافحه وقد انتابتني الحيرة وأنا أفكر: ما عساها تكون رابطة القرابة العائلية التي تشده إلى ماريا.

وبينما كان يشير إلي كي اتخذ مكاني، ابتسم، وشف محياه عن تعبير ساخر عابر وقال:

ـ إنني لاأدعى «ايريبارني»، وأرجو ألا تناديني ياسيد، فأنا «أجيندي» زوج ماريا

وأضاف على الفور، كأنه اعتاد على تقييم لحظات الصمت، أو على تأويلها:

- ان ماريا تكني نفسها دائماً بكنية عائلتها.

كنت أقف جامداً كتمثال، بينما استرسل يقول:

- لقد حدثتني كثيراً عن لوحاتك. وبما اني فقدت بصري منذ سنوات قليلة فلا زلت استطيع تصور الاشياء بشكل جيد تماماً.

بدا كأنه يود الاعتذار بسبب عماه، ولم أعرف ماذا أقول. كم تمنيت ان اكون في الشارع وحيداً، لأفكر في كل شيء.... !

تناول رسالة من جيبه، وقدمها الي قائلاً:

- هاك الرسالة.

قالها ببساطة وكأن الامر لا ينطوي على أي شيء غير مألوف. تناولتها وهممت في ان ادسها في جيبي حينما قال، وكأنه رأى ما كنت أقوم به:

اقرأها ولا تبالي، فبما أنها من ماريّا يجب ألا تنطوي على أي أمر ملح.

كنت ارتعش وأنا أفض الغلاف، وبينما بدا يشعل لفافته بعد ان قدم لي واحدة اخرجت الرسالة، وكانت تحتوي على عبارة واحدة فقط.

«وأنا أفكر فيك أيضاً.

ماريا»

عندما سمعني الضرير أطوي الورقة سأل:

- لا شيء ملح كما افترض..؟

اجبته بعد كبير عناء:

- اجل لا شيء ملح

شعرت بوحشية وأنا أرى الضرير يضحك وهو يصوب عينيه الجاحظتين نحوي. قال وكأنه يحدث نفسه:

- هكذا هي ماريا، تحير الكثيرين نزواتها المتسرعة. تقوم بتصرفات

اندفاعية لا تغير من الواقع شيئاً. كيف اشرح لك ذلك..؟

نظر إلى الأرض شارداً، وكأنه يبحث عن تفسير اشد وضوحاً، ثم تابع يقول:

إنها كمن يقف في وسط الصحراء، ويغير مكانه فجأة وبسرعة كبيرة، افهمت؟... ان السرعة ليست بذات اهمية، فهو سيكون دائماً امام منظر الصحراء نفسه.

فكر لحظات وهو ينفث دخان لفافته، ثم استطرد قائلاً كأنه لايشعر بوجودي

- لا أدري إن كان الأمر كذلك تماماً، فانا لست بارعاً في استعمال الاستعارات والتشابيه.

لم أجد الفرصة المناسبة للفرار من تلك القاعة اللعينة، وبدا أن الضرير لم يكن على عجلة من امره، فرحت أفكر. أية ملهاة كريهة هذه..؟

اضاف اجيندي قائلاً:

- فهي على سبيل المثال. نهضت باكراً، وقالت لي أنها ذاهبة إلى المزرعة.

فسألته دون ان أعي ماذا أقول:

- إلى المزرعة..؟

أجاب:

- نعم. إلى مزرعتنا. مزرعة جدي، التي هي الآن بحيازة ابن عمي «هونتر» أظن أنك تعرفه.

هذا الكشف الجديد ملأني همّاً وحفيظة في آن معاً. ماذا عساها تجني من العلاقة مع هذا الفاسق الأحمق المستهتر..؟ حاولت ان اهدىء من روعي ممنياً النفس بأن ماريا لم تذهب إلى المزرعة من أجل هونتر، وانما لمجرد حبها للعزلة في الريف، وفي المزرعة التي تخص العائلة. ومع ذلك بقيت في غاية الحزن. قلت بمرارة:

- لقد سمعت به.

وقبل ان يتسنى للضرير ان يتفوه بكلمة، اضفت بفظاظة:

ـ يتعين علي ان انصرف.

فقال اجيندي:

ـ كم يؤسفني ذلك، آمل ان نلتقي ثانية

ـ أجل، أجل طبعاً.

رافقني حتى بلغت البـاب. صافحتـه وخرجت مسرعاً. وبينما كان المصعد يهبط ببطء، رحت اردد بغيظ: «اية ملهاة كريهة هذه؟».

١٣

كنت في أمس الحاجة إلى التفكير بصفاء وهدوء. سرت في شارع «بوسادا» متجهاً إلى حديقة «لاريكوليتا».

كان رأسي جحيماً، تختلط فيه خواطر شتى، ومشاعر حب وكراهية وتساؤلات، وضغائن، وذكريات، ثم تأخذ في الظهور تباعاً، الواحدة تلو الأخرى.

ماذا كان وراء فكرتها تلك في أن تستدرجني إلى بيتها لاستلام رسالة ويقوم زوجها بتسليمها إلي؟ ولماذا لم تنبهني إلى أنها كانت متزوجة؟ وماذا بحق الشياطين كانت تفعل مع ذلك السافل هونتر في المزرعة؟ ولماذا لم تنتظر مكالمتي.. ؟ وهذا الضرير. اي نوع من الحشرات كان؟ لقد قلت اني كونت فكرة مقيتة عن البشرية، ويجب أن أعترف الآن بأنني **لا أطيق العميان أبداً** وأشعر إزاءهم باشمئزاز شبيه بذاك الذي اشعر به ازاء بعض أنواع الزواحف الباردة الرطبة.. كالأفاعي مثلاً. وان اضفت إلى ذلك قراءة رسالة زوجته بحضوره التي قالت فيها: «**وأنا أفكر فيك أيضاً**» فليس من الصعب إدراك ما كنت أشعر به من اشمئزاز في تلك اللحظات.

حاولت قليلاً أن اضع حداً لفوضى افكاري ومشاعري، وان اتصرف بمنهجية وفق عادتي. كان لا بد لي من الانطلاق من البداية. ومن الواضح ان البداية (المباشرة على الأقل) كانت المكالمة الهاتفية. ففي تلك المكالمة امور غامضة كثيرة.

وبادىء ذي بدء، إن كان أمراً طبيعياً جداً، في هذا المنزل، ان تقيم ماريا علاقات مع رجال، كما برهنت واقعة تسليم زوجها تلك الرسالة. فلماذا تلجأ إلى التكلف وتستخدم لهجة مكتبية حينما يكون الباب مفتوحاً.. ؟ ثم، ماذا كانت

تعني بقولها: «عندما يكون الباب مغلقاً، يدركون انه يتعين عليهم ألا يزعجوني». . . ؟. كان من الواضح أنها الفت ان توصد الباب لتتحدث بالهاتف، لكن ما لا يمكن تصديقه هو ان تفعل ذلك عندما تحادث أحد اصدقاء الأسرة بما لا يخرج عن نطاق الثرثرة. الأمر الذي يدعو إلى الافتراض انها كانت توصد الباب من أجل مكالمات شبيهة بمكالمتنا. وإذن، فإن في حياتها أشخاصاً آخرين من امثالي، لكن كم كان عددهم. . ؟. . من هم. . ؟

انصرف ذهني أولاً إلى هونتر، لكنني استبعدته في الحال. لمَ تتحدث معه في الهاتف، إن كانت تستطيع رؤيته في المزرعة متى تشاء. . ؟ من يكون هؤلاء والحالة هذه. . ؟

فكرت في ما ان كنت بهذا قد انتهيت من مسألة الهاتف. ولكن. . لا لم انته بعد إذ ما زالت مسألة جوابها على سؤالي المحدد معلقة. فعندما سألتها ان كانت تفكر بي لاحظت بمرارة أنها أجابت بعد لف ودوران: ألم أقل لك انني فكرت في كل شيء؟ فجوابها على السؤال بسؤال آخر، ليس فيه أي التزام، ثم ان الدليل على ان ذاك الجواب لم يكن واضحاً هو أنها وجدت نفسها في اليوم التالي (أو في تلك الليلة) مضطرة أن تجيب بصورة محددة تماماً بواسطة رسالة خطية.

قلت «لننتقل إلى الرسالة». اخرجتها من جيبي، واعدت تلاوتها:

«وأنا أفكر فيك أيضاً

ماريا»

كان الخط عصبياً، أو كان ـ على الأقل ـ خط انسان عصبي. ليس الأمر سيان فلو أن الرأي الأول هو الصحيح حقاً، لكان مجرد اعراب عن انفعال عابر، ولكان في النتيجة دليلاً يؤيد المعضلة التي أنا بصددها. ومهما كان الأمر، فان التوقيع: ماريا أثر فيّ جداً. هكذا ببساطة: **ماريا**. تلك البساطة غمرتني بشعور غامض بالملكية احسست معه ان الفتاة اصبحت جزءاً من حياتي وانها غدت ـ بصورة ما ـ تخصني.

تبـاً لاحسـاسي بالسعـادة ما اقصـره . . فذاك الشعـور الغـامض مثلاً ، لا يصمـد أمـام التحليـل البسيـط : . . ألم يكن زوجها يناديها أيضاً «مايا»؟ وهونتر ، كان بالتأكيـد ينـاديهـا كذلك ، وإلا كيف كان بوسعه أن يناديها . . ؟ . . وماذا عن الأشخـاص الآخـرين الـذين تتكلم معهم والأبـواب موصـدة؟ ما من امرأة ، كما أتصور، تتكلم والأبواب موصدة مع من يناديها بجدية واحترام : «أيتها الآنسة ايريباريني . . . » .

«الآنسة ايريباريني . . » الآن وقعت على سبب ما اعترى الخادمة من تردد عنـدمـا تكلمت بالهـاتف أول مرة . . يا للسخـريـة . . ان التمعن في الأمر جيداً ، يقدم دليلاً آخر على ان تلك المكالمات لم تكن بالأمر الطارىء قط . فمن الواضح ان الخـادمـة كانت تستغرب . وتجد نفسها مضطرة للتصحيح والتشديد على كلمة سيـدة عنـدمـا كان احدهم يسأل«عن الآنسة ايريباريني» بيد أنها أصبحت بحكم التكـرار طبعـاً ، تكتفي بهز كتفيهـا وتعتقـد أنـه من الأفضـل ألا تزج نفسهـا في تصحيحات من هذا القبيل . ترددتْ وكَانَ الأمر طبيعياً ، وإن لم تقم بتصحيح ما قلت .

وعنـدمـا فكـرت في الـرسـالـة ، رأيت ان هنـاك ما يبر ر العـديـد من الاستنتاجات . وبدأت بالواقعة الأشد بعداً عما هو مألوف وهي : طريقة تسليمي الـرسـالـة . وتـذكـرت ما روتـه لي الخـادمـة : «طلبت المعـذرة لأنها لم تكن تعرف عنوانك» . وفي الواقع لا هي طلبت مني عنواني ، ولا أنا خطر ببالي ان ازودها به ، لكنني لو كنت في مثـل موقفهـا ، لكـان أول ما أقـوم به ، هو البحث عنـه في دليـل الهـاتف . لا يمكن ان يعـزى موقفها إلى مجرد الكسل ، ولا يمكن تصديق ذلك . وكـان لابـد من التسليم بالنتيجـة التالية إذن : «ماريا كانت تريدني أن أذهب إلى بيتها للقاء زوجها وجهاً لوجه . . . » . ولكن لماذا . . ؟ هنا وصلت إلى موقف بالغ التعقيـد : . . لعلهـا كانت تشعـر بلذة عنـدمـا تستخـدم زوجها كوسيط ، أو لعل زوجهـا هو الـذي كان يشعـر بلذة عنـدما يؤدي هذا الدور . أولعلهما كانا يشعران

باللذة معاً. وفضلاً عن هذه الافتراضات التي تعزى إلى حالات مرضية بقي احتمال معقول وهو: . . . ان ماريا رغبت في ان تنبهني إلى انها كانت متزوجة، كي ارى بنفسي، انه لا يليق بي أن أمضي قدماً في علاقتي معها.

إنني واثق ان الكثيرين ممن يقرأون هذه الصفحات الآن، سيؤيدون الافتراض الأخير، وسيحكمون انه ليس هناك سواي ممن يمكن ان يقتنع بالافتراضات الأخرى.

في تلك المرحلة من حياتي التي كانت حافلة بالأصدقاء، كثيراً ما كانوا يهزأون من هوسي الدائم في اخيار السبل الأشد تعقيداً، وإنني اتساءل الآن: لماذا يجب أن تكون الحقيقة مبسطة . . ؟ لقد علمتني التجارب أن الأمر لا يكون كذلك ابداً، وما يبدو في غاية الوضوح احياناً، او يتراءى انه ناجم عن علة بسيطة، قد ينطوي دائماً على مسببات اكثر تعقيداً، وكمثال نصادفه كل يوم: . . . ان الذين يتصدقون على الفقراء يعتبرون انفسهم، بوجه عام، اسخى وأفضل من الآخرين الذين لا يتصدقون، وساسمح لنفسي ان اعالج هذه النظرية المبسطة بكل إباء. فالكل يعلم ان قطعة نقد اوكسرة خبز، لا تحل مشكلة متسول (متسول حقيقي). وانما تحل المشكلة النفسية للسيد المتصدق الذي يبتاع هكذا، وبلا مقابل تقريباً، طمأنينة روحية، وشهادة بأنه كريم. فاحكموا اذن، إلى أي حد يبلغ الشح عند هؤلاء، حين لا يقدمون على بذل أكثر من درهم في اليوم، كي يضمنوا طمأنينتهم الروحية وغرور تصورهم بأنهم طيبون. أي طهر روحي وأيـة شجاعة أدبية يتطلب القضاء على البؤس الانساني بعيداً عن أعمال النفاق (والربا) هذه . . . !

ولكن لنعد إلى الرسالة.

ان انساناً سطحياً فقط، يمكن أن يختار هذا الافتراض الذي ينهار أمام أبسط تحليل: «ان ماريا رغبت ان تنبهني إلى أنها كانت متزوجة كي أرى بنفسي انه لا يليق بي أن أمضي قدماً في علاقتي معها». حسناً، ولكن، لم اللجوء إلى

أسلوب على هذه الـدرجة من التعقيـد والقسـوة. . ؟ ألم يكن بوسعها أن تُعْلِمني شخصيـاً. . ؟. . أو هاتفيـاً. . . ؟. . ألم يكن بوسعهـا أن تكتب لي إن لم تملك الجرأة على مواجهتي شخصياً. . ؟ ما زالت لدي بعد حجة دامغة. . لماذا لم تأت الرسالة على ذكر زوجها. ؟ ولماذا لم تضرع إلي كي اسمو بعلاقاتنا إلى مستوى اكثر اتـزانـاً. . ؟ كلا يا سادة ان الأمـر نقيض ذلـك تمامـاً. فالـرساسة كانت ترمي إلى توطيد علاقاتنا، وتشجيعها، ودفعها إلى طريق اشد خطورة.

يبدو انه لم يبق سوى مناقشة الافتراضات المتعلقة بالامراض النفسية. هل كانت ماريـا تشعـر بلذة في استخـدام اجنـدي كوسيـط. . ؟ أم أنـه هو الذي كان يبحث عن تلك المناسبات. . ؟ أم أن القدر كان يعبث عندما جمع بين مخلوقين متشابهين؟

وشعرت فجأة بالندم على ما أوصلني اليه من ابعاد متطرفة هوسي في القيام بتحليـل لا حدود له للأفعـال والأقـوال، وتـذكرت نظرة ماريا المعلقة على شجرة الحـديقـة حينـما كانت تستمـع إلى آرائي، تذكـرت خجلها وهروبها الأول، وبدأ يغمـرني فيض من الحنـان نحـوهـا بدت لي أنهـا مخلوق هش يعيش في وسط قاس مفعم بالبؤس والبشـاعـة. واحسست بالشعـور الـذي اعـتراني مراراً، منذ لحظة اللقاء في قاعة المعرض: شعوري بأنها كانت مخلوقاً شبيهاً بي تماماً.

نسيت تصـوراتي الجـافيـة، واستنتـاجـاتي القاسية، ورحت اتخيل وجهها ونظرتها التي كانت تذكرني بشيء لم اتمكن من اكتناهه، وكيف كانت تفكر بحزن وعمق. وشعرت ان الحب المبهم الذي كنت اغذيه خلال سنوات العزلة قد تجلى في ماريّا. فكيف يمكنني أن أتصور إذن أموراً لا يصدقها عقل كهذه. . ؟

وحـاولت ان انسى حماقـة جميـع استنتـاجـاتي حول الهـاتف، والـرسـالـة والمزرعة، وهونتر.

ولكنني لم أتمكن.

كانت الأيـام التـاليـة مثـيرة . في غمرة تهوري لم اسأل متى ستعود ماريا من المـزرعـة . لكنني عدت في يوم زيـارتي لمنـزلهـا استفسر عن موعد رجوعها ، فردت الخادمة قائلة ، انها لا تعرف شيئا ، فطلبت منها عنوان المزرعة .

كتبت في تلك الليلة رسـالـة عاجلة اسألهـا فيها عن تاريخ عودتها ، واطلب منهـا ان تهتف لي فور وصـولهـا إلى بوينس ايـرس ، أو أن تكتب الي . وذهبت إلى مركز البر يد ، واودعت الرسالة مسجلة كي اتلافى مخاطر عدم وصولها .

قضيت ـ كما قلت ـ أيـامـاً بالغـة الاثارة ، وعادت الأفكار السوداوية ـ التي كانت تعـذبني بعـد زيـارتي لمنـزلها في شارع بوساداس ـ تدور في رأسي الف مرة . حلمت انني ازور اثنـاء الليـل منـزلاً قديـماً منعـزلاً اعرفه ، وكنت مولعاً به منذ أيام الطفـولـة جداً ، بيـد اني عندما دخلته ، أثار في نفسي بعض الذكريات . ووجدتني اضيـع في الظـلام احيـاناً أو أتخيل ان اعداء متخفين يتر بصون بي من الخلف ، أو أناساً يتهامسون من حولي ويهزأون بي وبسذاجتي . من كان اولئك . . ؟ وماذا كانوا يريـدون . . . ؟ لكني رغم كل ذلـك ، كنت أشعر وأنا في ذاك المنزل ، أن خلجات الحب الطفـولي القـديم ، بكـل ما فيهـا من ارتعـاشـات واحـاسيس عذبة مترعة بالطيش والرعونة والخوف والفرح ، كانت تنبعث في . عندما استيقظت ادركت ان المنزل لم يكن سوى منزل ماريا .

كان فكري طيلة الأيام التي سبقت وصول رسالتها إلي، أشبه ما يكون، بباحث تائه وسط موقع يحيط به الضباب. كنت أتوصل، بعد جهد كبير، إلى أن ألمح هنا وهناك أشباح أناس وأشياء مبهمة وأطياف مخاطر وهوى غامضة محيرة وكان وصول الرسالة الي، كشروق الشمس.

لكنها كانت شمسا سوداء، شمس ليل مظلم. لا أدري ان كان بوسعي ان استعمل تعبيرا كهذا، ولكن رغم اني لست كاتبا، ورغم اني لست متأكداً من دقة التعبير، فلن أغير كلمة (ليل). فلعنها هي وحدها الكلمة المناسبة التي تنطبق على ماريا، من دون سواها من الكلمات التي تتشكل منها لغتنا المشوهة.

هذه هي الرسالة التي بعثت بها إلي:

« . . لقد قضيت ثلاثة أيام غريبة: البحر والشاطىء، والدروب، كانت تحمل إلي ذكريات أزمنة غابرة، لم تقتصر على الصور وحسب، إنها حملت أيضاً، الأصوات والصرخات، وفترات الصمت الطويل في أيام ماضية. إنه لعجيب حقاً. فالحياة تكمن في بناء ذكريات مستقبلية، وفي هذه الساعة، هنا أمام البحر، أعلم أنني أقوم بتحضير جزئيات ذكريات، قد تجلب لي الغم واليأس يوماً ما.

. . . البحر هنا أزلي صاخب، لا عبراتي تفيد، ولا ساعات انتظاري على الشاطىء الموحش وأنا أنظر إلى البحر بعناد تنفع. أكنت قد تكهنت ورسمت ذكرياتي تلك؟ أم أنك كنت ترسم ذكريات الكثيرين من البشر أمثالي وأمثالك؟

. . لكن صورتك تقف الآن معترضة، إنك بين البحر وبيني، عيناي تلتقيان عينيك، إنك هادىء، كئيب قليلا، تنظر إلي كأنك تستغيث.

ماريا . . . . »

كم كنت أفهمها . . ! . . . ويالروعة المشاعر التي بعثتها هذه الرسالة في

نفسي . . . ! . . . وحتى مجرد مخاطبتي من دون تكلف ، سرعـان ماعـزز شعـوري بأن ماريا كانت لي . لي وحدي فقط . . « . . انك بين البحر وبيني» . هناك . . لم يكن احـد سواي ، كنـا وحـدنـا نحن الاثنـين تماماً كما كنت قد ادركت بحـدسي منذ اللحظـة الأولى التي وقفت فيهـا تتأمـل منظـر النـافـذة . حقـاً ، كيف يمكنهـا ألا تخاطبني دون تكلف طالما اننـا نعـرف بعضنـا البعض منـذ الأزل ، منذ الف سنة خلت . . . ؟ . . ومنـذ ان توقفت امـام لوحتي تلك ، تتأمـل ذاك المنظـر الصغير ، من دون أن تسمـع أوترى الجمـوع التي كانت تحيـط بها ، كنـا كأننـا نتخاطب بلا تكلف ، ومنذ ذلك الحين عرفت من تكون وكيف كنت بحاجة إليها وكيف كانت بحاجة إلي ايضاً .

آه . . ومـع ذاك فقـد قتلتـك . . . ! وكنت أنـا الـذي قام بقتلك ، أنا الذي كنت كمن يرى عبر جدار زجـاجي وجهـك الصـامت القلق ولا أتمكن من لمسه .

أنا . . . ما أشد غبائي . وما أشد ضلالي ، وما أشد انانيتي ، وما أشد قسوتي .

يكفي هذا الفيض من العــواطف . لقــد قلت انني سأروي هذه القصــة باقتضاب وهكذا سأفعل .

أحببت ماريـا حبـاً عارمـاً، ومـع ذلـك، لم يلفـظ أحدنا كلمة «حب» أمام الآخر. انتظرت بلهفة عودتها من المزرعة لأبوح لها بحبي.

لكنهـا لم تعـد. وبينـما كانت الأيـام تمضي، كان جنوني يشتد. كتبت اليها رسالة ثانية، أقول فيها ببساطة: احبك يا ماريا، احبك، احبك... !

وأخيراً، تلقيت بعد يومين، رسالة جوابية، تتضمن هذه الكلمات فقط:

«... اخشى أن اسيء اليـك كثـيراً..». فاجبتهـا في الحـال: «.. لا يهمني ما يمكنك ان تفعلي بي. ان لم يكن بوسعي ان احبك فسأموت. كل ثانية تمر من دون أن أراك هي عذاب لا نهاية له....».

مرت أيام عصيبة من دون أن أتلقى جواباً، فكتبت اليهـا يائساً أقول: انك تدوسين هذا الحب..».

سمعت صوتهـا عبر الهـاتف في اليـوم التـالي، كان بعيداً مرتعشاً. وما عدا كلمـة ماريـا لتي كنت اردد‌هـا باستمـرار، لم اهتـد إلى النطق بأي شيء آخر، ولم يكن بوسعي أن أفعل غير ذلك إذ ان حنجرتي كانت أعجز من ان تنطق بأية كلمة اخرى.

قالت:

- غداً أعود إلى بوينس ايرس. سأهتف لك فور وصولي.

ولما حل عصر اليوم التالي، هتفت لي من منزلها فقلت:

- اود رؤ يتك حالاً.

فأجابت:

- أجل، سنلتقي اليوم.

فقلت:

- انتظرك في حديقة سان مارتين.

بدا لي أن ماريا ترددت قليلاً. ثم اجابت:

- كنت أفضل حديقة لاريكوليتا، سأكون هناك عند الساعة الثامنة.

كيف كنت انتظر تلك اللحظة... ! . وكيف كنت أهيم في الشوارع على غير هدى كي يمر الوقت سريعاً.. !.. أي حنو كان يغمر نفسي، وكم كان كل شيء يبدو رائعاً. العالم، وأمسيات الصيف، والأطفال يلعبون على الرصيف.. ! يا للحب كيف يخطف الأبصار، واية قدرة سحرية على التغيير يمتلك! اجل.. روعة العالم ان تضحك حتى الموت.. !

كانت قد مضت بضع دقائق بعد الثامنة عندما رأيت ماريا تقترب، وهي تبحث في الظلمة. كان الوقت متأخراً، فلم اتمكن من رؤية وجهها لكنني عرفتها من مشيتها.

جلسنا سوياً، كنت اضغط على ذراعها واردد اسمها باستمرار، ولم اوفق في النطق بأي شيء آخر. أما هي فكانت تلتزم الصمت.

ثم سألتها بعنف فجأة:

- لماذا ذهبت إلى المزرعة..؟... ولماذا تركتني وحدي..؟.. لماذا تركت تلك الرسالة في المنزل..؟.. ولماذا لم تقولي انك متزوجة..؟

لم تجب. عصرت ذراعها، فتأوهت، وقالت بلطف:

- انك تؤذيني يا خوان بابلو.

- لماذا لا تقولين شيئاً..؟.. لماذا لا تجيبين..؟

لم تقل شيئاً، فصرختُ:

- لماذا..؟ لماذا..؟

قالت أخيراً:

- لماذا يجب أن يكون لكل شيء جواب..؟ دعنا من الحديث عني ولنتحدث عنك، وعن أعمالك، وعن اهتماماتك. لقد فكرت كثيراً في لوحاتك

وفي ما قلته لي في حديقة سان مارتين. اود ان أعرف ماذا تفعل الآن. وبماذا تفكر، وفيما إذا كنت قد رسمت ام لا.

عدت اعصر ذراعها بغضب واجبت:

ـ لا.. ليس ماأرغب به هو الحديث عن نفسي. أود أن نتحدث عنا نحن الإثنين، لا بد لي من أن أعرف إن كنت تحبيني، لا شيء سوى ذلك: معرفة فيما إذا كنت تحبينني.

لم تجب، ولم اتمكن وسط الصمت والظلمة ان استشف من نظراتها ما كان يدور في فكرها، وفي غمرة قلقي، اشعلت عود ثقاب، فاستدارت بسرعة لتخفي وجهها. امسكت بها بيدي الأخرى ونظرت إلى محياها: كانت تبكي بصمت.

قلت بمراراة:

ـ آه، إذن أنت لا تحبينني.

وبينما كان ضوء عود الثقاب يتلاشى، لمحت كيف كانت تنظر إلي بحنان، وعندما خيمت الظلمة من جديد، احسست بيدها تداعب رأسي. قالت برقة:

ـ اني احبك طبعاً.. لماذا يجب علينا أن نبوح ببعض الأمور..؟

اجبتها:

ـ نعم، لكن كيف تحبينني..؟ للحب صورة متعددة. يمكن للمرء أن يحب كلباً أو طفلاً. أنا أقصد حباً... حباً حقيقياً. أتفهمين..؟

داهمني حدس غريب: اشعلت عود ثقاب آخر فجأة، وكان ما توقعته، فقد كان وجه ماريا يفتر عن ابتسامة. اعني، أنها لم تكن تبتسم في تلك اللحظة، انما كان محياها يفتر عن ابتسامة قبل لحظة تقل عن عشر ثانية. كان يحدث أحياناً ان استدير فجأة، يخالجني شعور بأن هناك من يترصدني، فلا أجد أحداً، ومع ذلك كنت أشعر بأن الوحدة التي تحيط بي لم تكن سوى أمر طاريء، وأن شيئاً عابراً قد اختفى بعد أن خلف رعشة خفيفة بقيت تهتز في الجو. ما لمحته في محياها كان شيئاً من هذا القبيل.

قلت غاضباً:

ـ كنت تبتسمين.

فسألت بدهشة.

ـ ابتسم..؟

ـ نعم، تبتسمين: اني لا أخدع بهذه السهولة ابداً. إني ادقق كثيراً في تفاصيل الأمور.

ـ في أية تفاصيل كنت تدقق..؟

ـ كان قد استقر على وجهك شيء ما، بقايا ظل ابتسامة.

ـ عادت تقول بقسوة.

ـ وما الذي كان يجعلني ابتسم..؟

ـ سذاجتي، سؤالي عما إذا كنت تحبيني حقاً أم أنك تحبينني كطفل.. لا أدري.. لكنك كنت تبتسمين، لا أشك في ذلك أبداً.

نهضت ماريا فجأة، فسألتها مندهشاً:

ـ ماذا دهاك..؟

فأجابت بجفاء:

ـ إني ذاهبة

وثبت ناهضاً من مكاني وقلت:

ـ كيف كيف تذهبين؟.

ـ نعم، إني ذاهبة.

ـ كيف تذهبين.. ولماذا؟

لم تجب، فرحت اهزها بكلتا يدي واردد:

لماذا تذهبين؟

قالت:

ـ أخشى ان لا تفهمني أنت أيضاً.

أثار جوابها غيظي فقلت:

ـ كيف . . ؟ أسألـك عما هو بالنسبـة الي قضيـة حياة او موت، وبدلاً من أن تجيبي تبتسمين، بل تغضبين أيضاً. طبعاً لا يمكن والحالة هذه ان افهمك

قالت بجفاء:

ـ لقد خيل إليك اني كنت ابتسم

ـ اني متأكد.

ـ انت مخطيء إذن ويؤلمني جداً أنك تصورت ذلك.

كانت أفكـاري مشتتـة، وفي الـواقع لم أر الابتسامة وانما ظل شيء من هذا القبيل كان على وجه عاد من توه ليبدو جاداً.

قلت وقد غلبت على امري:

ـ لا أدري يا ماريا. لكنني على يقين من انك كنت تبتسمين.

ولـزمت الصـمت، ذليـلاً، متـداعيـاً، ثم سرعـان ما شعرت بيدها تمسك ذراعي بحنو وهي تقول بصوت بدا ضعيفاً واهناً:

ـ ولكن كيف كان بوسعك أن تفكر بذلك . . ؟

فاجبتها وأنا أكاد أبكي:

ـ لا أدري . . لا أدري.

اجلستني ثانية، وعادت تداعب رأسي، ثم قالت بعد لحظات صمت:

ـ لقـد حذرتـك من أن أسيء إليـك جداً، وترى الآن كيف أنني كنت على حق.

اجبتها:

ـ كان الذنب ذنبي.

فقالت وهي مستغرقة في التفكير وكأنها تتحدث مع نفسها:

ـ كلا، ربما كان الذنب ذنبي.

وفكرت «يا للغرابة».

فسألت:

ـ أية غرابة . . ؟

اذهلني سؤالها، واعتقدت أنها قادرة على قراءة الأفكار، (وبقيت على هذا اليقين أياماً)، ولست متأكداً، حتى اليوم، من أنني نطقت العبارة بصوت مسموع من دون ان انتبه لذلك.

في غمرة ذهولي لم أجب على سؤالها، فعادت تلح:

ـ اية غرابة . . ؟

قلت:

ـ عمرك

ـ عمري . . ؟

ـ نعم عمرك. كم لك من العمر. . ؟

ـ كم تعتقد . . ؟

فاجبت:

ـ هذا هو الأمر الغريب فعلاً، عندما رأيتك أول مرة، بدا لي أنك بنت ست وعشرين سنة، أو ما يقارب ذلك.

ـ والآن . . ؟

ـ لا . . لا . . في البدء كنت محتاراً لأن شيئاً ما غير مألوف كان يجعلني افكر. .

ـ بم كان يجعلك تفكر. . ؟

ـ كان يجعلني أفكر بسنوات عديدة. اشعر احياناً وأنا إلى جانبك كما لو أنني طفل.

ـ كم لك من العمر. . ؟

ـ ثمانية وثلاثون عاماً.

ـ انك فتى حقاً.

مكثت حائـراً، لا ليقيني بأن لي من العمـر ما يتجـاوز مرحلة الشباب، وانما لأنني ـ رغم كل ذلك ـ لا بد وأن أكون أكبر منها بسنوات عديدة، ولأن عمرها في جميع الأحوال، لا يمكن أن يتجاوز ستة وعشرين عاماً.

ولعلها أدركت سر دهشتي، فراحت تردد:

ـ انك فتى حقاً.

فسألتها بالحاح:

ـ وأنت كم لك من العمر. . ؟

فأجابت جادة:

ـ وما أهمية ذلك. . ؟

فقلت محتداً:

ـ ولماذا تسألين انتِ عن عمري. . ؟

فقالت:

ـ انـه لحديث تافـه حقـاً، وهـو ليس سوى غباء كله. وما يدهشني هو انك تهتم بأمور كهذه.

أنا الذي يهتم بأمور كهذه. . ؟. . انحن ندير محاورة من هذا القبيل؟ كيف يمكن أن يحدث كل هذا، حقاً. . ؟. كنت حائراً إلى حد نسيت معه العلة التي كانـت وراء السؤال الأولي الـذي جرنـا إلى هذا المـوقف. أو بالاحرى لم أقـم بالتحقيق في علة السؤال الأولى. وانـما تمكنت، بعـد ساعـات، عنـدمـا كنت في منزلي من إدراك المعنى العميق لتلك المحادثة التي بدت من حيث الظاهر مبتذلة جداً.

كنـا خلال ما ينـوف على شهـر من الزمن، نلتقي كل يوم تقريباً. لا أود أن اتـذكـر تفاصيل كل ما حدث طيلة هذا الوقت، سواء الرائع منها، أو المريع، فقد حصلت أمور محزنة شتى أفضل الاحتفاظ بها في غياهب الذكريات.

بدأت ماريّا تتردد على المرسم. تكرر مشهد عود الثقاب مرتين أو ثلاثة مرات، مع بعض التبـاين في التفـاصيل، وكان يسيطر علي هاجس الاعتقاد بأن حبها كان في أحسن الأحـوال حب أم، أو حب أخت، وان الاتحـاد الجسـدي يتراءى لي والحالة هذه بمثابة ضمانة حب حقيقي.

ساعـترف منـذ الآن، أن هذا الاعتقاد كان بالتأكيد إحدى السذاجات الكثيرة التي كانت تدعـو ماريـا للابتسـام والهـزء بي كلما ادرت ظهـري. كان الحب الجسـدي يزيـدني قلقـاً بدلاً من ان يهدىء من روعي، فقـد رافقته شكوك معذبة جديدة، وفصول من الخلافات المؤلمة، والتجارب المريرة في علاقتي مع ماريا. لن انسى الساعات التي قضيناها في المرسم أبداً.

فتنـاقضـات ماريـا وتصـرفـاتها الغريبة جعلت مشاعري تتراوح طيلة تلك المـدة، بين حب في منتهى النقـاء، وكـراهيـة لا تقف عنـد حدود، وسـرعـان ما خامـرتني الـريبـة، بأن كل تلك التصـرفـات كانت مصطنعـة. كانت تبـدو لي للحظـات، فتـاة على جانب كبـير من الخفر، وفجأة كنت أخالها عاهرة، ومن ثم يتوالى في ذهني موكب طويل من الشكوك: أين.. كيف..؟ من..؟ متى..؟

في منـاسبـات كثيرة لم يكن بوسعي نبذ الاعتقاد بان ماريا كانت تمثل ابشع وأخبث المهـازل وأنـا بين يديهـا، لست سوى طفـل ساذج تخدعـه بحكايات هيّنة كي يأكل أو ينام.كان ينتابني أحياناً خجل شديد، فأهرع لارتداء ملابسي واندفع إلى الشارع لاتنشق الهواء الطلق، واجتر شكوكي وتطيري. وفي احيان اخرى تكون تصـرفـاتي إيجابية وفظة، كنت أهوي عليها، وأطبق على ذراعيها بقسوة وأوليها،

واحدق في عينيها محاولاً الحصول منها، بالقوة،على ضمانات حب، حب حقيقي.

إنما ليس هذا تماماً ما أريد قوله. ويتعين علي أن اعترف بأني، أنا بالذات، لا أعرف ما أعني بهذا «الحب الحقيقي».والأمر الغريب هو استخدامي هذا التعبير كثيراً عندما كنت استجوبها. بيد اني لم أحلل معناه بعمق حتى اليوم. ماذا عنيت به..؟ أكنت أعني حباً ينطوي على الشهوة الجسدية..؟ لعلي ابتغيت ذلك في غمرة اندفاعي للاتصال على نحو أرسخ مع ماريا. إني واثق أننا كنا في بعض الأحيان نظفر بالاتصال، إنما بصورة هشة وعابرة وواهية، كانت تفضي بي إلى شعور باليأس والوحدة اشد من ذي قبل، يتلازم مع احساس مبهم بعدم الارتواء، كذلك الذي نحس به عندما نود استعادة لحظات متعة حب حلمنا به. لا شك اننا كنا ندرك بعض لحظات المشاركة العابرة، ومجرد وجودنا معاً، كان يخف من وطأة الكآبة المرافقة لهذا المشاعر باستمرار والناجمة عن عدم قابلية أنواع الجمال العابر هذه، للاتصال أصلاً، كان يكفي أن ننظر إلى بعضنا البعض كي ندرك أننا نفكر، أو بالأحرى أننا نتبادل المشاعر ذاتها.

لا شك أننا عانينا من قسوة تلك اللحظات كثيراً. لأن كل ما كان يحدث بعدها كان يبدو فظاً أو بليداً، واي امر نقوم به (كتبادل الاحاديث، وتناول القهوة..) كان موجعاً ويؤكد كم كانت لحظات الوصال تلك عابرة. ولكن ما هو اسوأ من ذلك انها كانت تؤدي إلى خلق مسافات جديدة تباعد بيننا، لأني وأنا في غمرة اندفاعي لتعزيز اندماجنا، كنت أرغمها على الاتصال الجنسي، لكن ذلك لم يكن يؤدي إلا إلى تأكيد استحالة اطالة تلك اللحظات او توطيدها بوساطة فعل مادي. وكانت هي تزيد من تعقيد الأمور لأنها ربما انطلاقاً من رغبتها في ازالة تلك الفكرة الثابتة من رأسي، كانت تفتعل الاحساس بالمتعة بصورة تكاد لا تصدق ومن ثم كانت تأتي فصول ارتداء ملابسي بسرعة، والهرب الى الشارع، و الضغط على ذراعيها بقسوة، والرغبة في انتزاع اعترافات حول حقيقة مشاعرها وعواطفها. لقد كان كل شيء بالغ البشاعة، إلى حد جعلها تحاول التهرب من

المتعة الجسدية كلما كنا نقترب من الاحساس بها،وفي نهاية المطاف بلغ بي الأمر حد الريبة المطلقة، وحاولت ان اقنع نفسي بان ذلك لم يكن عديم الفائدة لحبنا وحسب، انما مؤذ ايضاً.

كانت تلك التصرفات تزيدني ريبة، وتلقي ظلالاً من الشك على طبيعة حبها، فقد كنت اتساءل عما إذا كان ما تقوم به ليس سوى مسرحية هزلية كي تتجنب الحب الجسدي بحجة انه مؤذ، بينما هي في واقع الأمر تمقته اصلاً، ولذا فإن متعتها كانت مصطنعة. وبطبيعة الحال، كانت المشاجرات تتعاقب، وكانت المحاولات التي تبذلها لاقناعي تذهب سدى ولم تحقق من ورائها سوى اثارة جنوني بشكوك واهية جديدة، وهكذا كان يبدأ من جديد فصل من الاستجوابات اكثر تعقيداً.

وأكثر ما كان يثير حفيظتي ازاء هذا الخداع الذي كنت افترضه، هو استسلامي لها اعزلاً، فاقد الارادة كطفل صغير.

كنت أقول لها حانقاً:

ـ لو تطرق إلي الشك يوماً بأنك تخدعيني، ساميتك ميتة كلب.

كنت الوي ذراعها واحدق في عينيها، علِّي استطيع ملاحظة اشارة ما، أو بريق شك ما، أو بصيص تهكم ما، ولكنها كانت تنظر إلي، خائفة كأنها طفل، أو حزينة مستسلمة بينما تبدأ في ارتداء ملابسها بصمت.

في احد الأيام تجاوز عنف نقاشنا ما هو مألوف، وبلغ بي الأمر حداً جعلني اصرخ في وجهها: يا عاهرة. ظلت ماريا صامتة كأنها مشلولة، ثم ذهبت بصمت وببطء لترتدي ثيابها خلف الستار. وعندما هرعت اليها، يتنازعني الحقد والندم، لأطلب منها الصفح، رأيت محياها وقد بللته العبرات فوقفت حائراً، لا أدري ماذا افعل: قبلت عينيها بحنان، تضرعت اليها أن تغفر لي، بكيت أمامها، نعت نفسي بالحيوان المتوحش والظالم والحقود، واستمر الأمر على هذه الحال، بينما

كانت تكسو محياها علامات الاكتئاب، ولكن ما ان هدأ روعها وراحت تبتسم بفرح، حتى بدأ يتبين لي ان عدم استمرار الحزن مسيطراً عليها ليس امراً طبيعياً ابداً: كان بوسعها أن تهدأ وتطمئن، ولكن، ان تستسلم للفرح بعد ان صرخت في وجهها بتلك الكلمة، امر مريب جداً. وتراءى لي ان اية امرأة، بما في ذلك العاهرات لا بد وأن تشعر بالمهانة، إذا ما نعتها احد بتلك الصفة، وليس بوسع أية امرأة أن يعاودها الفرح بهذه السرعة، **إلا إذا كان نعتها بهذه الصفة ينطوي على شيء من الحقيقة**.

فصول متشابهة، كانت تتكرر كل يوم تقريباً. كانت احياناً تؤدي إلى حالة من الهدوء النسبي، نخرج بعدها إلى النزهة في حديقة فرنسا كشابين عاشقين. لكن لحظات الحنو هذه، بدأت تصبح اكثر ندرة وأقل ديمومة، كومضات الشمس المتقطعة في سماء تنذر بالعاصفة وتزداد اكفهراراً. وراحت شكوكي وتساؤلاتي تحدق بكل شيء كنبتة متسلقة تتشابك وتخنق اشجار حديقة بنسيجها الوحشي.

كانت في صمتها وكلماتها الضائعة وبعض رحلاتها الى المزرعة ومغامراتها العاطفية، تجعل استجوابي لها يزداد تواترا وتعقيداً يوماً بعد يوم، سألتها ذات مرة لماذا تطلق على نفسها إسم «الآنسة ايريباريني» بدلاً من «السيدة اجندي» فابتسمت وقالت:

- يا لك من طفل!.. وما اهمية ذلك..؟

فاجبتها وانا اتفحص عينيها:

- انه ينطوي، بالنسبة لي، على أهمية كبيرة.

قالت بعد أن فارقتها الابتسامة:

- انها عادة من عادات العائلة.

قلت:

- ومع ذلك، عندما اتصلت بالهاتف اول مرة، وسألت عن «الآنسة ايريباريني»، ترددت الخادمة برهة قبل ان تجيبني.

- لعلك تخيلت ذلك.

- ربما: ولكن لماذا لم تصحح خطأي..؟

عادت ماريا تبتسم، بملء فيها، ثم قالت:

- لقد قلت لك تواً، إنها احدى عادات العائلة، حتى ان الخادمة تعرف ذلك ايضاً، والجميع ينادونني «ماريا اريباريني».

- يبدو لي ان تسميتك «ماريا ايريباريني» امر طبيعي، ولكن ما هو غير طبيعي، ان تستغرب الخادمة قليلاً جداً عندما ينادونك «... آنسة..».

- آه.. لم انتبه إلى ان ذلك يثير دهشتك. حسناً فهو غير مألوف، ولعلَّ هذا ما يفسر دهشة الخادمة.

واستغرقت في التفكير، كما لو انها تلم بالمشكلة لأول مرة، فالححت قائلاً:

ـ ومع ذلك، لم تصحح ما قلته.

فقالت كما لو أنها استردت وعيها:

ـ من . . . ؟

ـ الخادمة . . لم تصحح كلمة «الآنسة».

ـ لكن، يا خوان بابلو، ان ذلك لا يرتدي أية اهمية، ولا أدري ما الذي تريد اثباته.

ـ اريد ان اثبت انها ربما لم تكن المرة الأولى التي تُنادين بها آنسة، لو أنها كانت المرة الأولى، لبادرت الخادمة الى التصحيح.

استغرقت ماريا في الضحك ثم قالت وهي تلامسني بحنان بينما خالط اساريرها شيء من الفرح:

ـ انك خيالي حقاً.

حافظت على الجد واستأنفت اقول:

ـ ثم، انك عندما اجبت على مكالمتي اول مرة، كانت نبرة صوتك في البدء متكلفة كأنها مكتبية، وما ان اغلقت الباب حتى استأنفت الحديث بنبرات رقيقة، فلماذا هذا التباين . . ؟

ـ قالت وقد علت محياها امارات الجد:

ـ ولكن، كيف تريدني ان اتحدث معك بحضور الخادم يا خوان بابلو . . ؟

ـ نعم، هذا معقول، ولكنك قلت: «عندما اغلق الباب يدركون انه يتعين عليهم ألا يزعجوني . . » ولا يمكن أن أكون انا المعني بتلك العبارة، لأنني كنت اكلمك اول مرة، وكذلك لا يمكن ان يكون المعني هونتر، إذ بوسعك ان تلتقيه في المزرعة متى شئت ويبدو لي واضحاً، انه لا بد وان اشخاصاً آخرين يحدثونك، أو كانوا يتحدثون معك أليس كذلك . . ؟

نظرت ماريا إلي بحزن، فقلت غاضباً:

ـ كان الأولى بك، ان تجيبيني على سؤالي، بدلاً من أن ترمقيني بنظراتك الحزينة.

ـ لكن، يا خوان بابلو، ان كل ما تقوله صبياني. يكلمني اشخاص آخرون طبعاً: ابناء عم، اصدقاء العائلة، والدتي، ولا أدري من كذلك..

ـ ولكن مكالمات من هذا النوع، ليس من الضروري، كما يبدولي، ان تتم خفية.

قالت غاضبة:

ـ من سمح لك بالقول اني اتخفى..؟

ـ لا تغضبي، انت بالذات تحدثت في احدى المناسبات ـ عن المدعو ريتشارد. وهوليس ابن عم لك، ولا صديق للعائلة. وليس امك.

قالت بعذوبة وقد غلبت على أمرها:

ـ مسكين ريتشارد.

ـ مسكين..؟.. لماذا؟

ـ انك تعلم جيداً انه انتحر. وانني اتحمل ـ إلى حد ما ـ بعض المسؤولية.

كان يكتب اليَّ رسائل رهيبة، لكنني لم أتمكن من مساعدته بأي شيء مسكين... مسكين ريتشارد..!.

ـ أود ان تطلعيني على بعض رسائله.

ـ لماذا؟ والرجل قد مات..

ـ ذلك لا يهم.. اود، مع ذلك، ان اطلع عليها.

ـ لقد احرقتها كلها.

ـ كان بوسعك ان تقولي منذ البدء انك قمت باحراقها. لكنك قلت لي كما هي عادتك «لماذا؟. والرجل قد مات... ثم. لماذا قمت بإحراقها، إن كنت قد فعلت ذلك حقاً...؟. لقد اعترفت مرة انك تحتفظين بجميع رسائل الحب،

ورسائل ريتشارد هذا لا بد أن تكون محرجة جداً كي تفعلين بها ما فعلت. . اليس كذلك. . ؟

ـ لم احرقها لأنها كانت محرجة، وانما لأنها كانت محزنة. كانت تغمني.

ـ لماذا كانت تغمك. . ؟

ـ لا أدري. . . كان ريتشارد رجلاً كئيباً، كان يشبهك كثيراً. .

ـ أكنت تحبينه. . ؟

ـ أرجوك. .

ـ ترجين. . لماذا. . ؟

ـ لكن لا. . يا خوان بابلو. لديك كل فكرة. .

ـ انـها لا أرى أنهـا ليست معقـولـة. . يعشقـك، يكتب لك رسـائل رهيبة تفضلين احراقها، ينتحر، وتعتقدين ان افكاري ليست معقولة. . لماذا. . ؟

ـ لأنني رغم كل ذلك لم أقع في حبه قط.

ـ ولم لا. . . ؟

ـ لا أدري حقاً. ربما لأنه لم يكن من النوع الذي يروق لي.

ـ قلت انه كان يشبهني كثيراً.

ـ يا إلهي. . كنت اعني انه يشبهك بشكل ما، ولكن لم أقل انه كان مثلك تمامـاً. كان إنسـانـاً عاجزاً عن ابتداع أي شيء، كان هداماً، وكان ذكاؤه قاتلاً، كان عدمياً. شيء من هذا شبيه بالجانب السلبي من شخصيتك.

ـ حسناً، لكنني ما زلت لا أدرك بعد، ما ضرورة حرق الرسائل.

ـ اؤكد لك انني حرقتها لأنها كانت تغمني.

ـ لكن، كان بوسعك أن تحفظيـها وألّا تقرأيها. في هذا ما يبرهن على أنك ثابرت على قراءتها إلى ان قمت بحرقَـها، وإن كنت قد كررت قراءتها، فلا بد ان يكون وراء ذلك امر ما كان من شأنه ان يجذبك اليه.

ـ أنا لم أقل انه لم يكن يجذبني.

- قلت انه لم يكن من النوع الذي يروق لك .

- ياإلهي . . يا إلهي . . المـوت أيضـاً لا يروق لي ، ومـع ذلـك ، كثـيراً ما يجذبني . كان ريتشـارد يجذبني مثلما يجذبني المـوت أو العـدم . ولكن ينبغي على المرء ، كما اعتقد الا يستسلم إلى هذه المشاعر بسهولة . ولعلي لهذا لم أحبه ، ولذلك حرقت رسائله . عندما مات قررت تدمير كل ما كان يمثل استطالات وجوده .

كانت في غايـة الحـزن ، ولم اتمكن من انتزاع اية كلمة اخرى عن ريتشارد ، لكن يتعـين علي ان اضيف ، ان ذلـك الـرجـل الذي توصلت في نهاية الأمر ، إلى معرفة الكثير ، عنه ، لم يكن هو أكثر من يعذبني ، وانما تلك الشخصيات المجهولة والأشبـاح التي لم تأت على ذكـرهـا قط ، والتي كنت ، مع ذلك ، أحس بها تتحرك في ظلمـة حيـاتهـا خلسـة . كنت اتصـور اسوأ خصال ماريا مقرونة بتلك الاشباح المجهـولـة . كلمـة واحـدة انـزلقت من بين شفتيهـا في لحظـة من لحظـات المتعـة الجسدية ، عذبتني وما زالت ، حتى اليوم ، تعذبني .

لكن ، من بين جميـع تلك الاستجـوابـات المعقـدة ، كان هنـاك استجواب واحد فقط القى ضوءاً مريعاً على ماريا وعلى حبها .

أما وان ماريا قد تزوجت اجندي ، فأمر منطقي طبعاً ، ان يفكر المرء بأنها لا محالـة كانت تكنّ ذات حين ، شعـوراً ما نحـو هذا الرجل ، ولابد لي من القول أن هذه المشكلة التي يمكن ان نطلق عليهـا «معضلة اجنـدي» كانت احـد اكثـر الهواجس هيمنة على تفكيري . كانت الألغاز التي رغبت في الكشف عنها كثيرة ، إلا أن أكثرها الحاحاً كان معرفة ما يلي :

هل كانت في يوم من الأيـام تحبـه . . ؟ . . . وهـل لا زالت تحبه . . ؟ لم يكن تناول هذين السؤالين بصورة منعزلة ممكناً ، إذ كانا متصلين بأسئـلة أخرى : فإن لم تكن تحب اجنـدي . من كانت تحب اذن . . ؟ . . . أنـا . . ؟ . . هونـتر . . ؟ . . . احـدى تلك الشخصيـات الغـامضـة التي كانت تتحدث معها بالهاتف؟ أم لعلها كانت تحب مخلوقات شتى بأساليب مختلفة ، كما يفعل بعض الرجال . . ؟ . إنما من الجـائـز أيضـاً أنهـا لم تكن تحب أحـداً ، وكـانت تقـول لكل منا ، نحن الشياطين الصبيـة الصغـار ، إنه حبها الوحيد وإن الآخرين مجرد اشباح ، أو مخلوقات تجمعها بهم علاقات سطحية أو ظاهرية وحسب .

قررت ذات يوم ان ازيح الستار عن «معضلة اجندي» فسألتها لماذا تزوجته فأجابت :

ـ كنت احبه .

قلت :

ـ إذن انت لا تحبينه الآن .

ـ أنا لم أقل انني لم اُعد احبه .

ـ قلت «كنت احبه» ولم تقولي «احبه» .

فاحتجت قائلة :

ـ انك دائماً تجعل من التلاعب بالألفاظ قضايا ، وتحرف كل شيء بشكل لا

يصدق. عندما قلت اني تزوجته لأني كنت أحبه، لم أكن أعني اني لا أحبه الآن.

قلت بغتـة، وكـما لو أني وددت أن اوقـع بها، لأجدها متلبسة تناقض أقوالاً ادلت بها في استجوابات سابقة.

- آه، إذن تحبينه.

صمتت. وبدت مغلوبة على امرها، فسألتها:

- لماذا لا تجيبين..؟

- لأني لا أرى فائـدة ترجى من ذلـك. لقـد كررنـا هذا الحـوار بصورة تكاد تكون متطابقة مرات عديدة.

- لا، انه ليس كالمرات السابقة. لقد سألتك ان كنت تحبين اجيندي الآن، وقلت لي نعم، واظنني اتذكر انك في مناسبة اخرى قلت لي في المرفأ ان اول انسان تحبينه هو انا.

عادت ماريا تلوذ بالصمت، ما يثير حنقي لم يكن تناقضاتها وحسب بل، ما كان يتطلبه من جهد، انتزاع أي تصريح منها، أيضاً.

لكنني عدت استنطقها:

- بماذا تجيبين على ذلك..؟

فبدت منهكة وهي تقول:

- يمكن للمـرء ان يعشق ويحب بطـرق متعـددة. ولـك ان تتصـور، انه لا يمكنني ان اثـابـر على حب اجينـدي الآن، كما كنت أحبـه منـذ سنوات خلت، عندما تزوجنا.

- باية طريقة تحبينه اذن..؟

- باية طريقة..؟.. انت تعرف ما أعني.

- أنا لا أعرف شيئاً.

- لقد قلت لك مرات عديدة.

- نعم، قلت لي، لكن لم توضحي أبداً.

صاحت بمرارة:

ـ أوضح . . . ! . انت قلت آلاف المرات، ان ثمة اموراً كثيرة لا تقبل الايضاح، وتريدني الآن ان اوضح امراً بالغ التعقيد كهذا. لقد قلت لك ألف مرة، ان اجيندي رفيق عظيم، احبه كأخ، وأرعاه، وأكنّ له عطفاً كبيراً، واعجب اعجاباً شديداً بصفاء سريرته، واخاله اسمى مني بكل ما في الكلمة من معنى، واشعر معه بأنني حقيرة ومذنبة فكيف يمكن لك ان تتصور اذن اني لا أحبه.

ـ لست أنا الذي قال انك لا تحبينه. انت قلت لي ان حبك له الآن ليس كما كان عندما تزوجت. لعله يتعين علي ان استنتج، انك عندما تزوجت كنت تحبينه، مثلما تزعمين أنك تحبيني الآن. ولكنك، من جهة أخرى، قلت لي في المرفأ منذ أيام إنني أول إنسان أحببته حباً حقيقياً.

نظرت ماريا إلي بحزن، لكنني استطردت أقول:

ـ حسناً، لنترك هذا التناقض جانباً، ولنعد إلى اجيندي، تقولين انك تحبينه كأخ، وأريد منك ان تجيبيني على سؤ ال واحد فقط. اتضاجعينه . . ؟

رمقتني بنظرة ابلغ حزناً، ظلت صامتة برهة، ثم سألتني بصوت مفعم بالألم:

ـ أمن الضرورة بمكان أن أجيب على هذا السؤ ال أيضاً . . . ؟

فقلت لها بقسوة:

ـ نعم، لا شك انه من الضروري جداً.

ـ يبدو لي ان استجوابي بهذا الأسلوب، بشع جداً.

ـ الأمر في غاية البساطة، يتعين عليك أن تقولي: **نعم أو لا**.

ـ الجواب ليس بهذه البساطة: يمكن ان أجيب، ويمكن ألا أجيب ايضاً.

فقلت ببرود:

ـ حسناً، هذا يعني نعم.

ـ حسناً، نعم.

ـ إذن انت تشتهينه.

قلت ذلـك وأنـا اتفحص عينيهـا بنيـة الكشف عن أمـر آخـر، إذ إن هذا التأكيد كان ناجعاً، لانتزع منها سلسلة من النتائج. لم اكن اعتقد فعلاً أنها تشتهيه (وان كان مزاج ماريا يجعل من ذلك امراً ممكناً)، بل كنت اود ارغامها على تفسير مسألـة «العطف الاخـوي» تلك. وكـما توقعت فقـد ترددت قبـل ان تجيب، ومن المؤكد انها كانت تفكر بالكلمات ملياً عندما قالت بعد لأي:

ـ قلت، اني اضاجعه، ولم أقل اني اشتهيه.

فصرخت بنشوة المنتصر:

ـ آه... ! هذا يعني انـك تقـومـين بمضـاجعتـه بلا رغبة، **ولكنك تجعلينه يعتقد أنك تشتهينه... !**

اكتسى وجـه ماريـا بالشحـوب، وراحت الـدمـوع تتسـاقط على وجنتيها بصمت. وكانت نظرتها كسيرة كقطعة زجاج محطمة.

ثم تمتمت ببطء:

ـ أنا لم أقل ذلك.

لكني استطردت بلا رحمة:

ـ ان الأمـر واضـح. لو دللت على أنـك لا تشعـرين بشيء، وانـك لا تشتهينـه، ولـو انـك دللت على ان العـلاقـة الجنسية، ما هي إلا تضحية تبذلينها تكـريـماً لعطفـه ولاعجابك بسموه الروحي، وما إلى ذلك. لما عاد اجيندي إلى مضاجعتك ابداً. وبعبارة اخرى: ان مجرد مواظبتك على مضاجعته، يبرهن على انـك اهـل لخداعـه، ليس فيـما يتعلق بعـواطفـك نحـوه وحسب، وانـما حتى باحاسيسك أيضاً. فانت اهلٌ لتقليد مشاعر اللذة باتقان.

كانت ماريا تبكي بصمت وهي تنظر إلى الأرض. ثم استجمعت قواها وقالت:

ـ انك في منتهى القسوة.

قلت:

ـ لنـدع الاعتبـارات الشكليـة جانبـاً: يهمني الجوهر. وجوهر الأمر هو أنك اهل لخداع زوجك خلال سنوات، ليس فيما يتعلق بعواطفك نحوه وحسب، انما تخدعينـه باحـاسيسـك ايضـاً. هذه النتيجـة يمكن ان يتوصل اليها أي كان. فما الذي يحول دون ان تخدعيني أنا ايضاً..؟.. سوف تدركين الآن لماذا قمت مراراً بتقصي حقيقة مشاعرك نحوي. اني اتذكر دائماً، كيف حذر والد ديدمونه، عطيل بقـولـه: «ان امـرأة تخدع والدها، يمكنها ان تخدع رجلاً آخر..» وبالنسبة لي، ما من قوة يمكنها ان تنتزع من رأسي انك كنت خلال سنوات تخدعين اجيندي باستمرار.

وشعرت للحظات، بالرغبة في ان أجعل قسوتي تصل إلى أقصى مداها، ورغم اني كنت أدرك ابتذال وبذاءة ما كنت أقول، اضفت:

نك تخدعين اعمى.

كنت، قبـل ان انطق بتلك العبـارة، أشعـر بشيء من النـدم. ففي أعماق المخلوق الذي ابتغى من النطق بها ارضاء نزعة مترعة بالشر، ثمت شخص آخر اكثر نقـاء وأشـد حنـاناً، كان، في الوقت الذي بدأت فيه قسوة تلك العبارة تفعل فعلها، مستعداً يتحفز، ولقد انحاز، بصورة ما، يتعاطف مع ماريا بصمت، قبل ان انطق بتلك الكلمات التـافهـة الحمقـاء، (مـاذا كنت في الواقع سأجني من ورائها. ؟)، إذ ماأن بدأت تلك الكلمات تخرج من بين شفتي، حتى سمعها ذلك الشخص الآخر الكامن في أعماقي مذهولاً كأنه لا يصدق ان بمقدوري ان اتفوه بها حقاً. وبقدر ما كانت تتسرب من فمي كان يشدد هيمنته على وعيي وارادتي، وكـاد ان يتـوصـل في الـوقت المناسب، إلى الحيلولة دون النطق بها كاملة. وما ان انتهيت من نطقهـا (لأني، رغم كل ذلـك تفـوهت بها كاملة) حتى كان يمتلك زمـامي تمامـاً، ويأمـرني بأن أقف ذليـلاً أمـام ماريا، اطلب منها الصفح واعترف ببـلادتي وقسـوتي. بئس هذا الانفصـام اللعـين في وعيي كم كان مسؤولاً عما ارتكبتـه من أعـمال شنيعـة! فبينـما يحملني جانب على اتخـاذ موقف رائـع نبيـل، يكشف الجـانب الأخـر عن الخـداع والنفاق والزيف، وفي حين يذهب بي جانب إلى حد التشهـير بمخلوق بشـري، يشفق الجـانب الآخـر على هذا المخلوق، ويـرميني أنـا بالذات بما اتهم الاخرين به، وفي الوقت الذي يريني فيه جانب جمال العـالم، يشـير الجـانب الأخـر إلى بشاعته، وإلى تفاهة كل مشاعر السعادة. لقد فات الأوان، على كل حال، لتضميـد الجـرح المفتـوح في نفس ماريـا (كان الأنا الأخـر الغـارق في كهف تغمـره القذارة يؤكد لي ذلك بتشف وحقد وانشراح) لقد أصبح الوقت متأخراً جداً.

انكفأت ماريـا صامتـه يتملكها عياء مطلق، بينما راحت نظراتها (كم كنت أعـرفهـا. . . !) تزيح الجسر المتحرك، الذي كان يمتد بين روحينا أحياناً، لتصبح

نظرة قاسية لعينين لا يدرك كنهها. وسرعان ما أدركت أن ذلك الجسر قد ازيح إلى الأبد، فلم اتردد، وأنا في غمرة يأسي المفاجىء، في ان استسلم إلى أقسى انواع الإذلال: كأن أقبِّل قدميها مثلاً. لكنني لم أنل منها سوى نظرة شفقة، ثم بدأت عيناها تلين للحظة رأفة بحالي، انها، بشفقة ولا شيء غير الشفقة.

وحينها كانت تغادر المرسم، وهي تؤكد من جديد، أنها لا تكن لي الحقد. ارتميت منهاراً فاقد الارادة، بقيت شارد الذهن، ذاهل النظرات حيناً، ثم ادركت فجأة انه يتعين علي أن أقوم بانجاز سلسلة من الأعمال.

خرجت إلى الشارع مسرعاً، إلا أن ماريا كانت قد توارت عن الأنظار ولم أعثر لها على أثر. استأجرت سيارة وانطلقت إلى منزلها، وتصورت أنها لن تذهب إلى هناك مباشرة ولذا كنت آمل أن التقي بها حين وصولها. وانتظرت أكثر من ساعة عبثاً. اتصلت هاتفياً بمنزلها من احد المقاهي، فقيل لي إنها لم تعد منذ أن خرجت عند الساعة الرابعة (أي ساعة ذهابها إلى مرسمي). انتظرت عدة ساعات اخرى، ثم اتصلت بالهاتف ثانية، قيل لي إنها لن تعود إلى المنزل قبل حلول الليل.

من شدة قنوطي، ذهبت لابحث عنها في كل الأماكن التي كنا نلتقي فيها او نرتادها عادة: في حدائق لاريكوليتا، في شارع سينتيناريو، في حديقة فرنسا في المرفأ الجديد. فلم اعثر لها على أثر. وادركت انها قد تذهب إلى أي مكان، ما خلا الأماكن التي تذكرها بأحلى اللحظات التي كنا نقضيها معاً. اسرعت إلى منزلها، وكان الوقت متأخراً جداً، وتوقعت أن تكون قد عادت. تحدثت بالهاتف، وكانت قد عادت فعلاً لكن قيل لي إنها في سريرها ويتعذر عليها أن ترد. فافصحت عن اسمي وحسب.

ان شيئاً ما بيننا كان قد انقطع.

عدت إلى منزلي يتملكني شعور بوحدة مطلقة.

واحساسي بأنني وحيد في هذا العالم، غالباً ما يظهر مختلطاً بشعور من كبرياء التفوق: فاحتقر الناس، واخالهم قذرين وبشعين وعاجزين وجشعين وقساة وانذال. ان وحدتي لا تخيفيني، وانها تكاد تكون ميدان كبريائي.
ولكنني في تلك اللحظة، كما في لحظات اخرى مماثلة، كنت أحس ان وحدتي ليست سوى ثمرة اسوأ خصالي، واحط تصرفاتي. كنت في مثل تلك الحالة اشعر أن العالم لا يستحق إلا الاحتقار، ولكن ما ان ادرك اني جزء منه حتى تستولي على حمى الفناء فاستسلم لمداعبات الاغراء بالانتحار، واثمل، واطارد العاهرات واشعر بشيء من الارتياح في اختبار نذالتي، وفي تأكيد اني لست أفضل من الوحوش القذرة التي تحيط بي.
في تلك الليلة، شربت في حانة من حانات حي «الباخو» حتى ثملت. كنت في اسوأ حالات السكر عندما شعرت باشمئزاز شديد من المرأة التي كانت ترافقني، ومن البحارة الذين كانوا يحيطون بي، فخرجت مسرعاً. سرت في شارع فيامونتي وانحدرت حتى أرصفة الميناء. جلست هناك وبكيت، كانت المياه القذرة من تحتي تغويني باستمرار. علام العذاب..؟ الانتحار يغري نظراً لقدرته على الافناء بسهولة: في ثانية واحدة ينهار هذا العالم السخيف كعملاق زائف، كما لو ان رسوخ ناطحات سحابه وصلابة مدرعاته وقوة مصفحاته، ومناعة سجونه لم تكن سوى وهماً وليست أكثر رسوخاً من شواهق ومصفحات ومدرعات وسجون حلم مزعج.
تبدو الحياة في ضوء هذا الفهم كابوساً طويلاً، يمكن الانعتاق منه بالموت، الذي قد يكون نوعاً من اليقظة. يقظة، ولكن على أي شيء..؟ هذا اللا حل بالارتماء في العدم المطلق والابدي، كان يصرفني عن جميع مشاريع الانتحار. ومع

ذلك فان تشبث المرء الشديد بالحياة، يؤدي به قبل ان يقوم بالقضاء على الوهم بمحض ارادته، إلى أن يفضل، في نهاية الأمر، تحمل ما فيها من نقص وعيوب وما ينجم عن بشاعتها من آلام. ويحدث عادة، عندما نصل إلى حافة اليأس التي تسبق الانتحار، بعد تراكم المساوىء إلى الحد الذي يفوق قدرتنا على الاحتمال، ان اية بارقة خير، مهما كانت ضئيلة تكتسب قيمة لا حدود لها، وتصبح عنصراً حاسماً نتمسك به، كما نقبض بيأس على أية قشة أمام خطر الانزلاق إلى هاوية.

عندما قررت العودة إلى المنزل كان بزوغ الفجر وشيكاً. لا اتذكر كيف وجدتني أمام منزل اجيندي، رغم قراري بالعودة (الذي اتذكره تماماً). والغريب انني لا اتذكر ما تخلل ذلك من حوادث. كنت جالساً على رصيف المرفأ، انظر إلى المياه القذرة وافكر، (يجب علي أن أنام الآن)، ثم، وجدتني أمام منزل اجيندي اتطلع إلى الطابق الخامس. لم كنت اتطلع..؟ من العبث ان اتصور انني يمكن ان اراها في تلك الساعة. مكثت وقتاً طويلاً وأنا في حالة ذهول، حتى خطرت لي فكرة: ذهبت أبحث عن مقهى؛ اتصلت بمنزلها هاتفيا ولم أفكر ماذا كان يترتب علي ان أقول لتبرير قيامي بذلك في مثل تلك الساعة. مضت حوالي خمس دقائق، وجرس الهاتف يرن، وعندما سمعت صوتها يرد علي وقفت كالمشلول لا أتفوه بأية كلمة. علقت السماعة مذعوراً، وغادرت المقهى، أسير على غير هدى. ولكن سرعان ما وجدتني أعود ثانية. وكي لا استرعي الانظار، طلبت كأساً من الخمرة، ثم قررت العودة إلى المنزل.

وجدتني بعد مضي وقت طويل جداً، في المرسم، فارتميت بملابسي فوق السرير ونمت.

- ٢٢ -

استيقظت فوجدتني أحاول الصراخ وأنا أقف وسط المرسم، رأيت في الحلم انـه كان يتعـين علي أن أذهب مع عدة اشخـاص، إلى منـزل سيـد كنا معه على موعـد. عنـدمـا وصلت المنـزل بدا لي من الخـارج كأي منـزل آخر، ولما دخلت، سرعان ما تأكدت انه لم يكن كذلك، بل يختلف عن سواه، بادرني صاحبه القول:

ـ كنت انتظرك.

خالجني شعـور بأنني وقعت في مأزق، واردت ان اهـرب. بذلت جهـداً هائلاً، لكن بعد فوات الأوان: احسست أن جسمي لم يعد يطاوعني فاستسلمت لاشاهد ما سيحدث وكأن الأمر لا يعنيني، بدأ ذلك الرجل بمسخي طيراً، طيراً بحجم انسان. ابتدأ برجلي: ورأيت كيف كانت تستحيل شيئاً فشيئاً إلى قائمتي ديـك أو ما شابـه ذلك. ثم ثابر يمسخ جميع اجزاء جسمي صعوداً مثلما يرتفع الماء وهـو يملأ صهـريجـاً. كان أملي الوحيد عندئذٍ معلقاً على أصدقائي الذين تأخروا في الوصول بلا مبر ر. عندما دخلوا، حدث ما ملأني رعباً: لم يلاحظوا اني تحولت إلى طير وعاملوني كعهدي بهم، مما يدل على أنهم كانوا يروني كما كنت من قبل. فكرت أن الساحر قد استولى على عقولهم، مما جعلهم يروني كإنسان عادي، لذا قررت ان اتطـرق إلى ما فعله بي. ومـع ان مبتغـاي كان استرعـاء الانتبـاه إلى الظاهرة العجيبة بكل هدوء، وتلافي تعقد الأمور واثارة الساحر، وما قد ينجم عن ذلـك من ردود فعـل عنيفـة (تجـره إلى القيام بما هو اسوأ)، بدأت اروي ما حدث بصـوت مرتفـع. لكنني لاحظت أمرين عجيبين: فالجملة التي اردت أن ألفظها، تحولت عند خروجها من فمي إلى نعيق طائر أجش الصوت، نعيق يائس غريب، لعله كان كذلـك بسبب انطـوائـه على عنصر انساني، وما كان اسوأ من ذلك، ان اصدقائي لم يسمعوا ذاك النعيق، مثلما لم يروا من قبل جسمي وقد تحول إلى طائر

كبير، بل كان الأمر عكس ذلك تماماً، إذ بدا لي أنهم يسمعون صوتي المألوف، أقول اشياء مألوفة، ولم تبدر منهم في أية لحظة ادنى بادرة استغراب، لذت **بالصمت** مذعوراً، ونظر إلي صاحب المنزل وعيناه تلمعان ببريق ساخر خفي لم **يلاحظه** على أي حال سواي. وادركت عندئذ ان احداً **لن يعرف البتة** أني مسخت طيراً. كان يلفني ضياع أبدي، واحساس بأن ذلك السر سيرافقني إلى القبر.

عندما استيقظت، وجدتني، كما قلت، اقف وسط الغرفة، يغمرني حمام من العرق البارد.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً. هرعت إلى الهاتف، فقيل لي انها ذهبت إلى المزرعة. اصابني الذهول. بقيت مستلقياً على السرير وقتاً طويلاً، ولم استقر على امر حتى قررت ان اكتب اليها رسالة.

لا أتذكر الآن تماماً، التعابير التي استعملتها في تلك الرسالة التي كانت طويلة جداً. انما اتذكر على وجه التقريب اني طلبت منها الصفح، وقلت اني لست سوى نفاية، ولا استحق حبها، وانه محكوم علي بحق أن أموت في عزلة مطلقة.

مرت علي أيام فظيعة من دون ان أتلقى منها جواباً. فبعثت اليها برسالة ثانية، ثم الحقتها بثالثة، فرابعة اكرر فيها الكلام ذاته. لكن كآبتي كانت في كل رسالة اشد من سابقتها. في الرسالة الأخيرة قررت أن أروي كل ما حدث تلك الليلة التي تلت افتراقنا. لم أوفر واقعة مهما كانت صغيرة، ولا حقارة من حقاراتي الكثيرة، كما لم يفتني ان اعترف لها بمحاولة الانتحار. لقد خجلت من ان استعمل ذلك كسلاح، لكنني فعلت. ولا بد لي من أن أذكر ايضاً، انني بينما كنت أصف لها تصرفاتي الوضيعة، ويأسي في وحدتي وأنا اقف تلك الليلة امام منزلها في شارع بوساداس، شعرت بعطف وحنان نحو نفسي، وحتى اني بكيت ورثيت لحالي. كنت اعلق املاً كبيراً على أن تشعر ماريا بمشاعر مماثلة عند قراءة الرسالة، وانطلاقاً من هذا الأمل، غمرني فرح بالغ. وعندما أودعت الرسالة بالبريد المضمون، كنت بصراحة، متفائلاً.

مع عودة البريد، وصلتني من ماريا رسالة تفيض رقة. شعرت ان بعضاً من حبنا الأول ينبعث ثانية، وإن لم يكن بروعة شفافيته الأصلية وإنما ببعض

خصائصه الجوهرية على الأقل. . هكذا كملك. فالملك هو ملك دائماً حتى وان غدر به بعض الرعاع من رعاياه الجاحدين الخونة وقاموا بتمريغه في الوحل.

كانت تريـــدني ان اذهب إلى المـــزرعـــة، فرحت احضـر حقيبـة ملابسي وصندوق ادوات الرسم كالمجنون. وانطلقت مسرعاً إلى محطة «كونستيتوسيون».

محطة اجينـدي هي كغـيرها من محطات القطارات الريفية، جمهرة صغيرة من القروين هناك، ورئيس محطة يرتدي قميصاً صيفياً، وعربة خيل هنا، وبعض أواني الحليب . .

أثار حفيظتي امران: غياب ماريا من جهة، وحضور السائق من جهة ثانية.

ما ان هبطت من القطار، حتى اقترب مني وسأل:

ـ هل أنت السيد كاستيل . . ؟

اجبته بهدوء:

ـ كلا، لست السيد كاستيل.

وخطـر لي تواً، أنـه سيكـون من الصعب ان انتظـر في المحطـة حتى عودة القطار، فقد يتأخر نصف يوم، أو ما يقارب ذلك. قررت على مضض، التعريف بنفسي، فاضفت أقول في الحال تقريباً:

ـ نعم أنا السيد كاستيل.

نظر إلي السائق بدهشة فسلمته حقيبتي وصندوقي. وسرنا سوياً حتى بلغنا موقف السيارة. قال الرجل:

ـ لقد المت بالسيدة ماريا وعكة.

فتمتمت متهكماً:

«وعكـه . . . !» . . كم كنت اعـرف هذه الحيل . . !. ثم خطرت ببالي من جديـد فكـرة العودة إلى بوينس ايرس، انما كان لا بد لي الآن، إلى جانب مسألة انتظـار القطـار، من اقنـاع السـائق، انني لست السيد كاستيل، او اقناعه، على الأقـل، بأنني وان كنت السيـد كاستيـل، لكني لست مجنـونـاً. وفكـرت في شتى الاحتمالات المتاحة لي بسرعة، وتوصلت إلى انه قد يكون من الصعب في مختلف الأحوال، إقناع السائق بأنني لست السيد كاستيل، او اقناعه، على الأقل، بانني

وان كنت السيد كاستيل، لكني لست مجنوناً. وفكرت في شتى الاحتمالات المتاحة لي بسرعة، وتوصلت الى انه قد يكون من الصعب في مختلف الأحوال، اقناع السائق، فقررت الاستسلام، والمضي إلى المزرعة. ولكن ماذا يمكن أن يحدث لو انني رجعت. . ؟ كان من السهل أن اتوقع ما يمكن ان يحدث، لأن الأمر لن يخرج عن كونه تكراراً لمواقف سابقة كثيرة: سيستولي علي الغضب وسيتزايد لأني لن اتمكن من صب جامه على ماريا، ساتألم كثيراً بسبب فراقها. ولن اتمكن من القيام بعملي، وكل ذلك تكريماً لمجرد افتراض التنكيل بها. أقول افتراض، لأنني لم اتمكن أبداً من اثبات ان هذا الاسلوب في الانتقام يؤدي إلى التنكيل بماريا.

في هونتر بعض الشبه من اجندي، (واظنني سبق وذكرت انهما ابنا عم. .) كان طويل القامة، اسمر البشرة، نحيل الجسم، زائغ النظرات. قلت في دخيلتي: «هذا الرجل بلا نخوة ومنافق». واشاع هذا الخاطر الفرح في نفسي (او، هكذا على الأقل، اعتقدت في تلك اللحظة).

استقبلني وهو يجاملني بصورة تثير الازدراء، وعرفني على امرأة نحيلة الجسم، تدخن بمشرب مفرط في الطول، ذات لكنه باريسية، تدعى ميمي اجيندي، كانت شريرة، حسيرة البصر.

ولكن يا للشيطان. . !. . اين ماريا. . ؟ اهي متوعكة حقاً. . ؟ كدت من شدة اشتياقي، انسى وجود اولئك من حولي، ولكن ما ان تذكرت موقفي، حتى استدرت فجأة نحو هونتر، لأراقب حركاته، وهذه طريقة تعطي أفضل النتائج مع اناس على هذه الشاكلة.

كان هونتر يرمقني بنظرة من عينين ساخرتين سرعان ما حاول اخفاءها وقال:

ـ لقد ألمت بماريا وعكة ولزمت الفراش. ولكن، اظن انها ستنزل حالاً.

لعنت نفسي، لأنني شردت: كان لا بد لي من استمرار الحذر مع هؤلاء الناس. كنت اقصد جازماً أن احصي عليهم، طرق تفكيرهم، ودعاباتهم،

وردود فعلهم ومشاعرهم: كان لي في كل ذلك عظيم فائدة فيما يخص علاقتي مع ماريا. أعددت نفسي لأستمع وأرى وحاولت أن أقوم بذلك وأنا على خير ما يرام. وعدت افكر بان المظهر العام لنفاق هونتر والنحيلة كان يثلج صدري. ومع ذلك كنت أشعر بالاكتئاب.

نظرت إلي حسيرة البصر وقد زمت عينيها كأنها تواجه زوبعة من الغبار. ولا شك ان سبب ذلك يعود إلى عزوفها عن استعمال نظارتها (وكما لو انها بالنظارة تبدو اشد قبحاً) وقد اضفى ذلك على ملامحها مزيداً من الوقاحة والنفاق.

قالت:

- هكذا، انت فنان اذن.

وعلى الرغم من أني كنت متأكداً أنها انسة قلت بغيظ:

- نعم يا سيدة.

وتدخل هونتر قائلاً:

- كاستيل فنان عظيم.

ثم أضاف، على سبيل الإطراء سلسلة من الحماقات، مردداً تلك التفاهات التي كان النقاد يكتبونها عني كلما اقمت معرضا للرسم. مثل: «فنان متين» وما إلى ذلك... ولا انكر انه في اتيانه على ذلك، كان يكشف عن شيء من روح الدعابة. ورأيت ميمي وقد عادت تتفحصني بعينيها المزمومتين فاضطربت ظناً مني أنها كانت ستنال مني بشيء. وإن كنت لاأعرفها حق المعرفة.

سألتني وكأنها تمتحنني:

- أي الرسامين تفضل..؟

لا... الآن تذكرت. طرحت هذا السؤال بعد ان نزلنا. إذ ما ان عرفني هونتر على تلك المرأة التي كانت تجلس في الحديقة قرب طاولة وضعت عليها ادوات الشاي، حتى قادني إلى الداخل. إلى الغرفة التي خصصوها لي، واثناء صعودنا (كانت الدار مؤلفة من طبقتين)، راح يشرح لي انها، فيما عدا بعض

التحسينـات، لا زالت على حالهـا، كما كان قد بنـاهـا جده، على انقـاض بيت قديم في مزرعة والده، وكنت اسائل نفسي «وانا، ماذا يهمني من كل ذلك. . ؟» من الـواضـح أن الرجل كان يود التظاهر بالتواضع والصراحة بيد اني أجهل مبتغاه من ذلـك. وبينـما كان يتحـدث عن أمـر يتعلق بسـاعـة شمسية، او شيء يتعلق بالشمس، كنت منصـرفـاً عنـه أفكـر ان ماريـا قد تكـون هنـاك في احدى الغرف العلوية. ولعل هونتر لمح نظراتي المتفحصة فقال:

ـ توجـد هنـا عدة غرف للنـوم، والـدار مريحـة فعـلاً، ولـو ان طراز بنـائها طريف، تذكرت أن هونـتر كان مهنـدساً. وكان لا بد من معرفة ما يمكن أن يعنيه بالبناء غير الطريف.

تابع حديثه وهو يشير إلى غرفة في الوسط، مقابل السلم:

ـ هذه حجرة نوم جدي القديمة، اشغلها انا الآن.

ثم فتح باب غرفة نوم اخرى وقال:

ـ هذه هي غرفتك.

تركني وحـدي في الغـرفة وقال انه سينتظرني في الحديقة لتناول الشاي. وما ان وجدتني وحدي حتى بدأ قلبي يخفق بعنف فقد فكرت ان ماريا يمكن ان تكون في أي من غرف النوم تلك، وربما في الغرفة المجاورة. وفيما كنت أقف وسط الغرفة لا أدري ماذا أفعـل خطـرت ببـالي فكـرة، فاقتر بت من الجدار المشترك مع الغرفة الاخـرى (التي لا تعـود لهونـتر) وطـرقته بقبضتي طرقاً خفيفاً، وانتظرت رداً، لكن احداً لم يجب. وخرجت إلى الممر لاتأكد ان احداً لم يكن هناك، وبينما كنت اشعر باضطـراب شديـد اقـتر بت من باب الغـرفـة المجـاورة ورفعت يدي لاطرق عليه لكنني لم اجرؤ، وعدت إلى غرفتي مسرعاً. ثم قررت النزول إلى الحديقة. كنت مشتت الفكر تماماً.

- ٢٥ -

كنا نجلس حول الطاولة، عندما سألتني النحيلة أي الرسامين أفضل. ذكرت ببلادة بعض الاسماء مثل: فان كوخ، الغريكو. فنظرت إلي بازدراء وكأنها تخاطب نفسها:

- هه، أنا لا يعجبني كبار العظماء.

ثم توجهت بالكلام إلى هونتر:

- أقول لك بصراحة، إن هذه العينات من امثال ميكيل انجل، او الغريكو تزعجني. تباً للمأساوية والعظمة ما اشد عدوانيتهما..! ألا تعتقد أنهما تنطويان على شيء من نقص التهذيب..؟ اني اعتقد أنه يجب على الفنان ان يلتزم حدود عدم استرعاء الأنظار دوماً، يثير سخطي الإفراط في المأساوية والأصالة. تصور، إن كون الكاتب مبدع اصيل يعني بصورة ما، أنه يقوم بالكشف عن عجز الآخرين، مما ينم، كما يبدو لي، عن ذوق مشكوك فيه جداً. أظنني لو مارست الرسم أو الكتابة، لما قدمت إنتاجاً مثيراً يسترعي الانظار أبداً.

قال هونتر بخبث:

- لا أشك في ذلك.

ثم أضاف:

- إني واثق أنه لايطيب لك كتابة رواية مثل رواية الأخوة «كارامازوف» مثلاً.

فصاحت ميمي بالفرنسية، وهي ترنو نحو السماء:

- يا للهول...!

ثم تابعت تشرح رأيها وهي تزج في حديثها بعض الكلمات الفرنسية:

- يبدو أنهم حديثو النعمة بالوعي، بمن فيهم ذلك الكاهن... ما... ما اسمه...؟.... آه، «زوزيم».

- ميمي.. لماذا لا تقولي سوسيمو، كما ننطقها بالاسبانية...؟ إلا إذا

كنت مصممة على لفظها بالروسية، فهذا امر آخر.

ـ ها قد بدأت بحماقاتك حول قواعد اللغة. لا شك انك تعلم أن الأسماء الروسية يمكن أن تلفظ بطرق مختلفة، كما كان يقول ذلك الممثل في احدى المسرحيات: «تولستوي.. أو، تولستوا.. الوجهان صحيحان، بل يجب أن يكونا كذلك».

قال هونتر:

ـ لهذا السبب اذن، يضعون اشارة تشديدعلى الياء في اسم تولستوي، كما لاحظت في ترجمة منقولة من الروسية مباشرة (حسب ادعاء دار النشر)، فرغت تواً من قراءتها.

فصاحت ميمي فرحة:

ـ آه.. هذه الأشياء تسحرني. قرأت ذات مرة، ترجمة فرنسية لتشيكوف، كنت تجد فيها كلمة مثل ـ **ايتشفوتشنيك** ـ (أو ما شابه ذلك) وإلى جانبها اشارة. ترجع إلى اسفل الصفحة فتجد معناها، وليكن مثلاً كلمة «**حمال**»، فتصور، إن احدنا لا يفهم والحالة هذه، لماذا لا يستخدمون الاسلوب نفسه. ويضعون بالروسية كلمات مثل «**بالرغم من أن**» **أو** «**قبل**».. اليس كذلك..؟ أقول لك بصراحة، ان اعمال المترجمين هذه تسحرني وعلى الأخص، عندما يتعلق الأمر برواية روسية. هل تتحمل سيادتك رواية روسية..؟

طرحت علي هذا السؤال على حين غرة، لكنها لم تنتظر جواباً، بل اردفت تقول وهي تنظر إلى هونتر ثانية:

ـ تصور اني لم أتمكن من اتمام قراءة أية رواية روسية ابداً. انها متعبة جداً... تظهر فيها الوف الشخصيات، وفي النتيجة تجد انهم ليسوا اكثر من أربعة أو خمسة فقط، فعندما تبدأ بشخص يدعى «الكسندر» تجد فيها بعد ان اسمه «ساتشا» ثم «ساتشكا» ومن ثم «ساتشنكا»، وسرعان ما يتضخم فيصبح «الكسندر وفيتش يونين». وما تكاد تهتدي حتى يعودوا إلى تضليلك من جديد.

انها قضية لا نهاية لها. فكل شخصية تبدو اسرة. لن تقول لي ان ذلك ليس منهكاً، حتى بالنسبة لك أيضاً.

قال هونتر:

ـ اؤكد لك يا ميمي ثانية، انه لا داعي لأن تلفظي الأسماء الروسية باللغة الفرنسية لماذا لا تقولين تشيخوف بدلاً من تشيكوف. . ؟ فذلك أقرب إلى الأصل، بالاضافة إلى ان لفظه بالفرنسية قبيح جداً.

قالت ميمي متضرعة:

ـ ارجوك، لا تكن مملاً يا «لويسيتو». متى ستتعلم كيف توارى معلوماتك. . . ؟ انك ثقيل الظل، ومتعب أيضاً.

ثم توجهت الي لتسألني:

ـ ألا يبدو لك الأمر كذلك. . ؟

فاجبت من دون أن انتبه لما أقول:

ـ نعم. فنظر إليَّ هونتر ساخراً.

كان الحزن قد بلغ بي حداً مريعاً. ويقال بعد ذلك اني لست صبوراً. ما زلت حتى اليوم اعجب كيف كنت استمع إلى كل تلك الحماقات بانتباه شديد. وكيف أتذكرها بكل بساطة. والأمر الغريب هو أني حينما كنت أصغي إليها، كنت أحاول أن أعزي النفس بأن: «هؤلاء الناس تافهين وسطحيين، وأن قوماً على شاكلتهم لا يمكن ان يثيروا في نفس ماريا سوى شعور بالوحدة. ان قوماً على هذه الشاكلة لا يمكن أن يكونوا أهلاً للمزاحمة ابداً». ومع ذلك فإني لم اظفر بالسعادة. كنت احس ان الحزن ينبع من اعماقي، وكنت اشعر بالغم والقلق، لأني لم اكن ادري سبب هذا الحزن رغم ما بذلت من محاولات لتهدئة روعي ورغم ما صرفت من جهد كي أدع امر معاينة تلك الظاهرة الى الوقت الذي أكون فيه وحيداً. وفكرت ايضاً ان سبب حزني، قد يكون ناجماً عن غياب ماريا، لكنني انتبهت إلى ان غيابها كان يثير ني أكثر مما يحزنني. **لا لم يكن كذلك.**

كانـا يتحـدثان عن الروايات البوليسية : وفجأة، سمعت المرأة تسأل هونتر ان كان قد قرأ الرواية الأخيرة من سلسلة (الحلقة السابعة) فأجابها:

ـ ولماذا اقرأها؟ ان جميع الروايات البوليسية متشابهة، قراءة رواية واحدة في العالم تكفي. اما قراءة واحدة في الاسبوع فتنم عن خيال قارىء محدود، كما اتصور.

اغتاظت ميمي، أعني أنها تظاهرت بالغيظ وقالت:

ـ دعـك من هذا الهـراء. انهـا الروايات الوحيدة التي يمكن ان تقرأ في هذه الأيام. بل سأقول لك بصراحة إنها تسحـرني، فهي بالغة التعقيد كلها، ورجال التحـري فيهـا مدهشـون ويحيطـون بكـل شيء: فن عصـر مينـغ، علم معـرفـة الأخلاق من خلال الخط، نظرية «انشتاين» و«باسكال»، لعبة «البيسبول»، علم المستحاثات، التنجيم، الاقتصاد السياسي، احصاءات تربية الارانب في الهند. ثم، إنهم معصومون عن الخطأ بشكل رائع. أليس كذلك. . . . ؟

طرحت السؤ ال وهي تتجـه نحـوي ثانيـة. فوجئت ولم أعـرف ماذا أقـول فأجبت مجاملاً:

ـ اجل، انه كذلك.

وعاد هونتر يرمقني بازدراء، لكن ميمي نظرت اليه بحدة وقالت:

ـ سأقول لجورجي انك لا تطيق الروايات البوليسية.

فأجابها هونتر:

ـ أنا لم أقل إني لا أطيقها: قلت إنها تبدو لي متشابهة جميعها.

ـ سأقـول لجورجي على كل حال. لحسن الحـظ لا يتحـذلق جميـع الناس مثلك. فالسيد كاستيل مثلاً، تعجبه الروايات البوليسية، أليس كذلك؟

سألتها مذعوراً:

ـ أنا. . . ؟

قالت:
- طبعاً.
ولم تنتظر جوابي، بل عادت تنظر إلى هونتر وتقول:
- لو ان جميع الناس عباقرة مثلك لاستحال العيش. اني واثقة انه لا بد وان تكون لديك نظرية كاملة عن القصة البوليسية.

قال هونتر وهو يبتسم:
- انه لكذلك.
قالت ميمي بصراحة وهي توجه كلامها اليَّ ثانية. وكأنها تتخذ مني شاهداً:
- ألم أقل لك..؟ لا.. اني اعرف هذا الرجل تماماً.
ثم توجهت إلى هونتر:
- هات لنر ان لم يكن لديك هاجس حب الظهور حقاً. لا بد انك على أحر من الجمر، من شدة الشوق إلى شرح نظريتك.

وفعلاً، فإن هونتر لم ينتظر كي يتوسل اليه احد، بل راح يشرح:
- نظريتي هي كما يلي: الرواية البوليسية في القرن العشرين، تمثل، ما كانت تمثله رواية الفروسية في عصر سرفانتيس. واعتقد انه يمكن في عصرنا هذا، انتاج عمل مماثل لدون كيخوته، برواية بوليسية نقدية ساخرة، تصوروا، رجلاً أمضى حياته يقرأ روايات بوليسة، وتوصل به الجنون إلى حد الاعتقاد بأن العالم يتحرك كما هو الأمر في روايات «نيقولاس بلاك» أو «ايلري كوين». وتصوروا أن هذا المسكين ينطلق في نهاية الأمر لاكتشاف الجرائم. ويسلك في الحياة اليومية، كما يسلك رجل التحري في تلك الروايات. أعتقد أنه من الممكن إنتاج عمل مسل، مأساوي رمزي هجائي رائع.
سألت ميمي باستهزاء:
- لماذا لا تقوم بذلك..؟

فأجاب:

- لسببين. لأنني لست سرفانتيس، ولاني شديد الكسل.

فقالت ميمي:

- اظن ان السبب الأول كاف.

ولسوء الحظ، توجهت الي، وقالت وهي تشير بمشربها الطويل إلى هونتر:

- هذا الرجل يتهجم على الروايات البوليسية، لأنه أعجز من ان يكتب رواية واحدة فقط، حتى وان كانت اشد الروايات مللاً في العالم.

قال هونتر بعد ان طلب من ابنة عمه لفافة:

- متى ستكفين عن هذه المبالغات. فانا، أولاً، لم اتهجم على الروايات البوليسية، إنما قلت ببساطة، إنه يمكن القيام بإنتاج ما، من قبيل دون كيخوته عصرنا مثلاً. ومن جهة ثانية، فانت مخطئة جدا ان تصورت اني مصاب بعجز مطلق في هذا المجال. لقد خطرت لي ذات مرة فكرة بديعة، تصلح لرواية بوليسية.

قالت ميمي بالفرنسية:

- كفى مزاحاً.

واستطرد هونتر:

- نعم. اقول لك نعم. تصوري رجلاً، له ام وزوجة وابن، ذات ليلة، تقتل الأم بطريقة غامضة. تحريات الشرطة، لا تتوصل إلى اية نتيجة. بعد مدة تقتل الزوجة. لا تؤدي التحريات إلى نتيجة ايضاً. وأخيراً يقتل الإبن. ويجن جنون الرجل، فهويحب الجميع والولد بصورة خاصة. من شدة يأسه يقرر أن يقوم بالتحقيق في هذه الجرائم بنفسه وبالطرق المعتادة، الاستدلالية، الاختزالية، التحليلية، التركيبية.. الخ، التي يلجأ اليها نوابغ الرواية البوليسية، ويتوصل إلى ان القاتل لا بد وان يرتكب جريمة رابعة في يوم معين وساعة معينة، ومكان معين. واستدل ان القاتل لا بد وان يقتله هو هذه المرة. وفي اليوم المعين، والساعة

المحددة لاقتراف الجريمة، يذهب الرجل إلى المكان الذي لا بد وان ترتكب الجريمة الرابعة فيه. وينتظر القاتل دون جدوى. يراجع الرجل استدلالاته. قد يكون اخطأ في تقدير المكان..؟.. لا.. فتقدير المكان صحيح. قد يكون اخطأ في تقدير الساعة..؟ لا.. تقدير الساعة صحيح ايضاً. وتكون النتيجة مرعبة:... إن القاتل لابد وأن يكون في المكان في تلك اللحظة. وبعبارة أخرى: إن القاتل هو ذات الرجل الذي ارتكب الجرائم الأخرى وهو في حالة اللاوعي. رجل التحري والقاتل هما الشخص نفسه.

علقت ميمي قائلة:

- انها في منتهى الاصالة. وهي تنسجم مع ذوقي. ولكن كيف تنتهي؟ الم تقل انه لا بد وان ترتكب جريمة رابعة؟

رد هونتر بفتور:

- النتيجة بمنتهى الوضوح. ان الرجل ينتحر ويبقى الشك قائماً، هل ينتحر بسبب من تبكيت الضمير أم أن الأنا القاتلة تقضي على الأنا التحري، كما هو الأمر في جريمة مبتذلة. ألا تعجبك..؟

قالت ميمي:

- يبدو لي أنها مسلية. لكن أن تقوم بروايتها هكذا أمر، وان تكتبها كرواية، أمر آخر.

أجابها هونتر بهدوء:

- حقاً.

بعد ذلك بدأت المرأة تتكلم عن منجمة، كانت قد تعرفتها في مدينة ماردل بلاتا وعن عرافة تقرأ الكف. ثم ألقى هونتر دعابة، فانزعجت ميمي وقالت:

- سترى ان الأمر على جانب من الجد، فالزوج استاذ في كلية الهندسة. دار بينهما نقاش حول التراسلية، بينما كان غياب ماريا يقلقني، وحينما

عدت أعيرهما اهتمامي، كانا يتحدثان عن نظام حقوق العامل.

قالت ميمي بحزم، وقد شهرت مشربها كعصا موسيقار:

ـ ما يحدث في الواقع، هو ان الناس لا يريدون ان يشتغلوا ابداً.

عندما أشرف الحديث على نهايته، اهتديت فجأة، إلى ما بدد اسباب حزني الذي لم أكن أعرف له مصدراً: أدركت أن ميمي تلك قد وصلت في آخر لحظة، وان ماريا لم تنزل لئلا تضطر إلى تحمل آرائها وآراء ابن عمها (التي كانت، بالتأكيد، تعرفها حق المعرفة). هذا الحدس، كما أتذكر الآن. لم يكن مجرد مظنة، وانما يعود إلى بضع كلمات رواها لي السائق ونحن في طريقنا إلى المزرعة، لم أعرها أي اهتمام آنذاك، وهي تتعلق بابنة عم للسيد كانت قد وصلت لتوها من ماردل بلاتا كي تتناول الشاي. المسألة اذن في منتهى الوضوح: . . . اعتكفت ماريا في غرفة نومها مدعية المرض، بسبب انزعاجها من وصول تلك المرأة المفاجىء وكان من الواضح انها لا تستطيع تحمل اشخاص كأولئك. وشعوري بأن هذا الاستنتاج قد بدد حزني، هداني فجأة إلى مصدر هذا الحزن: حين وصلت إلى المزرعة، ورأيت هونتر وميمي منافقين تافهين، شعرت بالفرح يلامس الجانب السطحي من نفسي، لأنني كنت أدرك والحالة هذه ان هونتر لا يملك أية امكانية للمنافسة، لكنني عندما كنت أفكر (أو بالأحرى أشعر)، أن ماريا كانت جزءاً من تلك المجموعة، وأنها قد تتمتع بصورة ما، بخصال مشابهة كان الحزن، يغمر الجانب الأعمق من نفسي.

عندما نهضنا من حول المائدة لنتجول في الحديقة، رأيت ماريا تقترب منا، مما أكد صحة افتراضي: . . كانت تنتظر تلك اللحظة، لتتجنب حديث المائدة التافه.

كنت، كلما اقتربت ماريا مني بحضور أناس آخرين، أفكر: «ان بين هذا المخلوق الرائع وبيني، رباطاً خفياً . . ». وفيما بعد، حينما كنت أقوم بتحليل مشاعري، سرعان ما كنت أدرك، أنها بدأت تصبح ضرورة لا غنى لي عنها (كما لو ان احدنا عثر على الآخر في جزيرة مقفرة) وما ان راح خوفي من العزلة المطلقة يتبدد، حتى بدأت تتحول إلى نوع من الترف يثير في الشعور بالكبرياء، وكان أن بدأت، في تلك المرحلة من حبي لها، تبرز آلاف المصاعب، مثلما يحدث لمن يكاد يموت من الجوع فلا يتردد في قبول أي شيء يقدم اليه، وحالما يشبع ضروراته الملحة، يبدأ بالتبرم والشكوى من العيوب والمساوىء، شيئاً فشيئاً. لقد اتيح لي أن أرى في الأعوام الأخيرة مهاجرين وفدوا، وهم يتحلون بوضاعة الفارين من معسكرات الاعتقال، يقبلون أي شيء في سبيل النجاة، ويتولون بسرور، القيام بأحط الأعمال. ولكن الأمر الغريب حقاً، هو ان احدهم لا يقنع بأن يهرب من التعذيب والموت لكي يعيش سعيداً: فما ان يبدأ بالتمتع باماان جديد، حتى تعاوده نوازع الزهور والغرور والعجرفة، بعد أن كان يتراءى، أنه تم القضاء عليها إلى الأبد، وكما لو أن تلك النوازع ما هي الا بهائم عادت، بعد ان هربت مذعورة، لتبدو أشد عتياً، وكأنه اخجلها ان يكون انهيارها قد بلغ هذا الحد. يتعين علينا أن ندرك، كيف تساعد مثل هذه الظروف، على ظهور نوازع الجحود ونكران الجميل.

اني إذ استطيع الآن تحليل مشاعري بهدوء، اظن ان شيئاً من هذا كان يشوب علاقاتي بماريا، وأشعر انني ادفع، بصورة ما، ثمن حماقة ما ارتكبته،

عنـدمـا لم اقنـع بإسهـام ماريـا الـذي أنقـذني (موقتاً) من العزلة، إن تلك النشوة المفعمة بالكبرياء، وتلك الرغبة المتنامية بالامتلاك متفرداً، كان يجب أن تكشفا لي، أنني اتوجه في طريق الخطأ، يقودني الغرور والصلف.

في تلك اللحظـة، عنـدمـا رأيت ماريّا مقبلة، كان ذاك الشعور بالكبرياء يتـلاشى تحت وطأة إحسـاس بالـذنب والعار أثارتهما ذكرى المشهد المريع في مرسمي، واتهـامي الفـظ الـرخيص، بأنهـا انـما كانت «تخـدع ضريـراً» شعـرت بأن رجلي تتداعيان، وبالقشعريرة والشحوب يغزوان وجهي. واجدني هكذا في وسط هؤلاء النـاس. . ! هكـذا لا أستطيـع أن ارتمي ذليلاً اطلب منها الصفح، وتسكين موجة الغضب والاحتقار التي تكنها لي. . . !

ولكن لم يبـد أن ماريـا فقـدت ربـاطة جأشها، وبدأتُ أشعر في الحال، أن الحزن المبهم، الذي سيطر علي في ذلك المساء، عاد يتملكني من جديد.

حيتني بعبـارات رصينـة، كأنهـا ارادت أن تبرهن أمام قريبيها ان ما بيننا لا يتعدى مجرد الصداقة، وتذكرت بانزعاج وازدراء، ما حدث لي معها قبل أيام. فقد قلت لها أثنـاء احـدى نوبات القنوط، انني أود في احدى الامسيات مشاهدة ابراج «سـان خمينيـانـو» من فوق احـدى التلال. فنظرت إلي بحماس وقالت: «ما اروع ذلـك يا خوان بابلو»، ولكن عنـدمـا اقـترحت ان نهرع إليهـا تلك الليلة ذعـرت وتقلصت اسـاريـر وجههـا وقـالت لي بكـآبـة: «ليس من حقنـا ان نفكـر في ذاتينا وحسب، ان العـالم معقـد جداً». وعنـدما سألتها ماذا كانت تعني بذلك، اجابت بنبرة اشد كآبة: «ان السعادة محفوفة بالآلام». فتركتها فجأة ولم اودعها. وشعرت يومها، اكثر من أي وقت مضى، انني لن أتمكن من الاندماج الكامل معها أبداً، وانـه يترتب علي ان استسلم لما اظفـر به من لحظـات وصـال هشة، عابرة وكئيبة، كذكرى بعض الأحلام، أو كنشوة بعض المقاطع الموسيقية.

وهـاهي الآن قد وصلت، تتحكم في كل حركـة من حركـاتهـا، وتـزن كل

كلمة من كلماتها، وكل ايماءة من ايماءاتها، وحتى انه كان بوسعها أن تبتسم لتلك المرأة أيضاً. . . !

سبألتني ان كنت قد اتيت باللوحات، فصحت بغيظ، وأنا أعلم انني احبط احدى مناوراتها المعقدة، وان كانت لصالحنا:

ـ اية لوحات. . ؟

فقالت وهي بكامل هدوءها:

ـ اللوحات التي وعدت بعرضها علي. لوحات الميناء.

رمقتها بنظرة مفعمة بالحقد، لكنها تحملت نظرتي وهي عابسة الاسارير، وبعد لحظة قصيرة عادت نظرتها تلين، وكأنها تقول: «رحماك من كل هذا».

حبيبتي. . يا حبيبتي ماريا. . . ! . . . كم عانيت من لحظات التوسل والاذلال هذه!

نظرت اليها بحنان وقلت:

ـ أتيت بها طبعاً، إنها في مخدعي.

فقالت وهي تحافظ على فتورها:

ـ إني مشتاقة جداً لرؤيتها.

فقلت وقد أدركت ما ترمي اليه:

ـ يمكننا أن نراها الآن.

وارتعشت لدى تصوري احتمال ان تلحق ميمي بنا. لكن ماريا التي تعرفها أكثر مني قالت على الفور، لتحول دون أية محاولة من ميمي لحشر نفسها:

ـ سنعود حالاً.

ثم أمسكت ذراعي بحزم، وقادتني باتجاه المنزل، وبلمحة عابرة، تصورت ان ميمي نظرت الي هونتر، وفي عينيها وميض ذو مغزى.

كنت أحسب أني سأقضي عدة أيام في المزرعة، ولكني أمضيت ليلة واحدة فقط، فما ان اشرقت شمس اليوم الذي تلا وصولي، حتى لذت بالفرار مشياً على قدمي، احمل حقيبتي وصندوقي. قد يبدو هذا التصرف ضرباً من الجنون، ولكن سنرى إلى أي حد كان له ما يبرره.

ما ان افترقنا عن هونتر وميمي حتى ولجنا البيت، وصعدنا للبحث عن اللوحات المزعومة ثم هبطنا ومعنا الصندوق، ومحفظة بدت كأنها تحتوي بعض الرسوم. كانت تلك حيلة من بنات أفكار ماريا.

كان ابنا العم قد تواريا عن الأنظار. عندئذ بدأت ماريا تشعر بانشراح بالغ، وعندما مشينا عبر الحديقة نحو الشاطىء كان يمتلكها حماس حقيقي. كانت امرأة تختلف عن تلك التي كنت أعرفها حتى ذلك الحين في جو المدينة الكئيب: كانت أكثر نشاطاً، وأوفر حيوية وبدت لي أيضاً أنها تنم عن نهم للألوان والروائح، لم أعهده فيها من قبل: كان حماسها غريباً (غريباً على انا الذي امتلك نهماً باطنياً، يكاد لا يرقى إليه سوى الخيال المحض) كان يثيرها لون جذع شجرة، وورقة خريفية جافة، وحشرة ما ايا كانت، واريج اشجار الكينا المزوج بعبير البحر. يبدو ان ذلك كان، بدلاً من أن يزيدني فرحاً، يملأ نفسي اسى ويأساً لأنني كنت أشعر، أن ماريا هذه، ليست تلك التي عرفتها إطلاقاً، فهي لابد وان تخص - بشكل ما - هونتر أو اي شخص آخر.

كان حزني يشتد شيئاً فشيئاً، ولعل السبب في ذلك يعود أيضاً إلى صخب الامواج الذي كنا نحس هديره يتناهى إلى مسامعنا تدريجياً. حينما اجتزنا الهضبة، وتجلت امام عيني سماء ذلك الشاطىء، شعرت بأن لا مناص لي من ذلك الحزن ابداً، فقد كان ينتابني دائماً عندما اواجه الجمال، أو على الأقل، بعض

أنــواع الجــمال. هل يشعـر الجميـع بمثـل ماأشعر، أم أن ذلك عيباً آخر من عيوب طبيعتي التعيسة؟

جلسنـا فوق الصخـور، والتزمنا الصمت زمناً طويلاً، نصغي إلى الأمواج الصـاخبـة تتلاطـم من تحتنا، ونحس رذاذ الزبد المتطاير يغمر وجهينا عندما تبلغ موجاته أعالي الجرف. ذكرتني السماء الصافية بمنظر سماء تينتوريتو[1] في لوحته انقاذ اسماعيل.

قالت ماريا:

ـ كم مرة حلمت بمشاطرتك هذا البحر وهذه السماء.

صمتت برهة واردفت تقول:

ـ يبدو لي أحياناً، كأنما كنا دائماً، نعيش هذا المشهد معاً. عندما وقع نظري على تلك المـرأة المعتـزلة في نافذة لوحتك، احسست انك مثلي وانك تبحث أيضاً بصـورة عشـوائيـة عن احد ما، عن محاور ما أبكم، ومنذ ذلك اليوم وأنا افكر فيك باستمرار، لقد حلمت بك كثيراً هنا في هذا المكان، حيث قضيت ساعات طويلة من عمري. حتى اني فكرت في احد الأيام، ان ابحث عنك واعترف لك. لكنني خفت ان اخطيء كما كنت قد اخطأت مرة، فانتظرت ان تكون انت الذي يقوم، بشكـل ما، بالبحث عني في حين كنت أقـوم بتقـديم مساعدة فعالة لك، كنت في كل ليلة أناجيك، وبلغ يقيني بالعثور عليك حداً، جعلني اقف مذعورة لا أملك سوى نطق بضع عبارات بليدة، حينما حدث اللقاء امام باب ذلك المصعد التافه، وعنـدمـا هربت تتألم مما حسبته، خطأ ارتكبته، اخذت اعدو وراءك كالمجنونة. ثم توالت تلك اللقـاءات في حديقـة سان مارتـين، وكنت تعتقـد انه لا بد لك من ان تفسـر لي بعض الأمـور، في حين كنت أحاول أنا تضليلك، يتنازعني القلق من أن افقـدك إلى الأبـد، والخـوف من ان اسبب لك الأذى. كنت أحـاول ان اثبـط

---

١ ـ رسـام ايطـالي عاش في القـرن السـادس عشـر، وتميزت لوحاته بالتباين الشديد بين الضوء والظل. المترجم

حماسك، واجعلك تحسب اني لم أكن أفهم كلماتك المتقطعة وحديثك الحافل بالرموز.

لم أقل لها شيئاً. كانت تدور في خلدي مشاعر رائعة، وأفكار قاتمة، وأنا استمع الى صوتها، ذاك الصوت الساحر، وبدأت ارتمي في جو مسحور. وراح افول الشمس يشعل ذؤابه ضخمة بين غيوم الغروب. واحسست ان تلك اللحظة السحرية لن تتكرر **أبداً**. «ابداً ابداً». فكرت، وأنا أراقب دوار الجرف، واتصور، كم كان سهلاً لو أجرها ونرتمي في القاع معاً. . . !

سمعت بعضاً مما كانت تقول بصوت متقطع: «. . يا الهي . . أشياء كثيرة في هذا الخلود تجمعنا معاً . . اشياء فظيعة . . لسنا هذا المنظر وحسب، انما مخلوقات صغيرة من لحم وعظم، تفيض بشاعة وتفاهة . . .».

كان البحر قد بدأ يتحول إلى مارد اسود وحل الظلام المطبق فجأة، وشرع هدير الموج في أسفل الجرف يكتسب جاذبية كئيبة: وعادت تراودني فكرة. . كم كان سهلاً. . . نعم هي التي كانت تقول إننا مخلوقات تفيض بشاعة وتفاهة، ولكن رغم أني كنت أعرف مدى قدرتي على القيام بأعمال حقيرة، فقد كان مجرد التفكير بأنها هي أيضاً، يمكن ان تكون كذلك يملأني كآبة، ولقد كانت كذلك **حقاً**. ولكن. . . كيف؟ . . مع من؟ . . . متى؟ وراحت تنمو في أعماقي رغبة عمياء في ان انقض عليها وامزقها باظافري، واطبق على عنقها حتى اخنقها ثم القي بها في البحر. وسرعان ما سمعت مرة أخرى، بعضاً مما كانت تقول: كانت تتحدث عن ابن عم لها، خوان، أو ما شابه ذلك، تحدثت عن الطفولة في الريف خلت أني سمعت شيئاً عن وقائع «عاصفة وقاسية» كانت قد حدثت مع ابن عمها.

وبدا لي ان ماريا كانت تبوح باعترافات قيمة، وانني قد ضيعتها بحماقتي.

صرخت:

ـ يا لها من وقائع عاصفة وقاسية. . . !

لكن الأمر الغريب هو أنها لم تكن تسمعني: لقد كانت هي أيضاً غارقة في سبات، وكانت على ما يبدو، وحيدة أيضاً.

ـ مضى وقت طويل، لعله كان ربع ساعة.

ثم احسست بها تداعب وجهي، كما كانت تفعل في لحظات اخرى مشابهة. لم اقو على الكلام. وضعت رأسي في حجرها كما كنت أفعل مع أمي عندما كنت طفلاً. ومكثنا هكذا زمناً ساكناً متوقفاً مجبولاً من الطفولة والموت.

كم يؤسفني ان يكون وراء ذلك وقائع غامضة ومريبة.. ! كم تمنيت ان اكون مخطئاً، وكم تمنيت ألا تكون ماريا اكثر مما هي عليه في تلك اللحظة! . يبدو أن ذلك كان مستحيلاً: بينما كنت اصغي إلى نبضات قلبها قريباً من مسمعي وبينما كانت يدها تداعب شعري، كانت تتحرك في ظلمة رأسي افكار قاتمة، كأنها في دهليز موحل تنتظر لحظة الخروج وهي تهمهم وتتخبط في الطين.

حدثت امـور بالغـة الغرابة. حينما عدنا إلى البيت، وجدنا هونتر مضطرباً جداً (وان كان ممن يعتقدون ان اظهار الانفعالات ليس من اللياقة في شيء) حاول كبت هيجـانـه، انـما كان من الـواضـح ان امـراً ما قد حدث. كانت ميمي قد انصرفت وكل شيء في غرفة الطعام اعد بانتظار العشاء، ورغم انه كان من الجلي اننـا تأخـرنـا كثـيراً، فما ان وصلنـا حتى بدأت تدب حركـة سريعة وفعالة لتقديم الطعـام. خيم الصمت، ولم يتكلم أحـد تقـريبـاً: أحصيت على هونـتر كلماتـه وحركاته، لأنني شعرت أنها قد تلقي ضوءاً على كثير من الأفكار التي كانت تدور في ذهني، وعلى افكـار اخـرى آخـذة بالتبلور. راقبت ايضاً وجه ماريا، فلم تكن اساريره تنم عن شيء. قالت لتخفف من وطأة الجو المتوتر، انها تقرأ قصة لسارتر فعلق هونتر بضيق ظاهر:

- قصص في هذا الزمن. ليكتبوا ما طاب لهم، ولكن هات من يقرأ. . . !

ثم خيم علينـا الصمت، ولم يحاول هونـتر ان يبـذل أي جهد للتخفيف من آثار تلك العبارة واستنتجت انه كان يضمر في نفسه شيئاً ما ضد ماريا. ولما لم يكن هنـاك ما يسـترعي الإنتبـاه قبـل ذهـابنـا إلى الشـاطىء، رأيت أن ذلك الشيء، قد نشأ اثنـاء حديثنـا الطـويـل، وكـان من الصعب التسليم بأنـه لم يكن بسبب ذلك الحـديث أو بالأحـرى، بسبب الـوقت الطـويل الذي قضيناه معاً هناك. وكان ما استنتجت هو: إن هونـتر يغـار وهـذا يدلـل على أن ما بينـه وبين ماريا، كان أكثر من مجرد علاقات صداقة وقربى. وذلك، لا يعني بالضرورة ان تكّن ماريا له الحب، بل على العكس: الارجـح ان هونـتر كان يغتـاظ كلما رأى ماريـا تولي اهتماماً لأشخاص آخرين. وكيفما كان الأمر، فما دام منشأ غيظ هونتر هو الغيرة، كان لا بد له وان يظهر لي العداء، إذ ليس بيني وبينه أي شيء آخر. وهكذا كان، وحتى

ان لم يكن هناك دلائل اخرى، لكنت اكتفيت بتلك النظرة الجانبية التي رماني بها في أعقاب عبارة ذكرتها ماريا حول الجرف.

تذرعت بالتعب، وذهبت إلى غرفتي حالما نهضنا من حول المائدة. وكان قصدي هو الحصول على اكبر عدد من الادلة حول المسألة. صعدت السلم، وفتحت باب غرفتي واشعلت النور، ثم صفقت الباب كما لو أنني اوصده، ومكثت خلفه استرق السمع. وسرعان ما ترامى الى مسامعي صوت هونتر ينطق عبارة مشوشة لم أميز كلماتها، إنما لم تلق جواباً من ماريّا. ثم تفوه بعبارة أخرى أطول واشد اضطراباً من سابقتها. وقالت ماريا بضع كلمات بصوت منخفض جداً تداخلت مع نهايات عبارة هونتر، وتبع ذلك جلبه كراس، ثم وقع أقدام تصعد السلم: اوصدت الباب بسرعة، لكنني بقيت استرق السمع خلال ثقب المفتاح، وبعد لحظات، سمعت وقع اقدام تمر من امام باب غرفتي: كانت خطوات امرأة، بقيت متيقظاً وقتاً طويلاً، افكر بما كان يحدث وأحاول ان استمع إلى أية همسة. لكنني لم اسمع شيئاً طوال الليل.

لم أتمكن من النوم: بدأت تعذبني سلسلة من الهواجس لا عهد لي بها من قبل. وسرعان ما ادركت سذاجة استنتاجي الأول: كنت احسب (حقاً) انه ليس من الضروري ان تكن له الحب كي يشعر هونتر بالغيرة، وكان هذا الاستنتاج يريحني. لكنني أدركت الآن، أنه إن لم يكن من الضروري حقاً، **لكن ليس هناك ما يمنع أيضاً.**

يمكن أن تحب ماريا هونتر، وان كان هو يشعر بالغيرة.

وعلى كل حال، هل كانت هناك دواع للاعتقاد بأن لماريا علاقات ما مع ابن عمها..؟ إني أعتقد ولا شك أن هناك دواع ...!. إن كان هونتر، يضايق ماريا بغيرته، في حين انها لا تحبه، فلماذا كانت تتردد على المزرعة ما بين حين وآخر؟ ما من أحد كان يعيش في المزرعة سوى هونتر. لقد كان وحيداً (لم أكن أعرف ان كان عازباً، أم ارملاً، ام مطلقاً، وان كنت احسب ان ماريا قالت لي مرة، انه

كان منفصلا عن زوجته. ولكن الأمر الهام هو ان ذاك السيد كان يعيش في المزرعة وحيداً). وما يثير الريبة في هذه العلاقة ان ماريا كانت تحدثني عن هونتر بلا مبالاة دائماً، اعني، كمن يتحدث عادة عن أي كان من أفراد العائلة انها لم تذكر او تلمح لي ابداً ان هونتر كان يحبها، أو انه كان يغار عليها. هذا ومن جهة اخرى فإن ماريا كانت قد حدثتني عصر ذلك اليوم عن مكامن الضعف فيها، فماذا كانت تعني بذلك... ؟ لقد رويت لها في رسالتي سلسلة من الامور المهينة (حول سكري، والمومسات) وهاهي تقول لي انها كانت تتفهم، وانها هي ايضاً لم تكن زوارق تبحر فقط او حدائق تشرق عليها شمس الغسق وحسب. ماذا يمكن ان يعني ذلك، سوى ان حياتها، مثل حياتي، كانت حافلة بامور بالغة الغموض والمهانة أيضاً..؟ ألا يمكن ان تكون علاقاتها مع هونتر من النوع الذي ينطوي على اهواء منحطة..؟

كنت، طوال الليل اجتر تلك الاستنتاجات، واتفحصها، من وجهات نظر مختلفة. والنتيجة الحاسمة التي توصلت إليها هي: **إن ماريا عشيقة هونتر.**

ما ان لاحت تباشير الصباح حتى هبطت السلم أحمل حقيبتي وصندوقي. التقيت بخادم كان يفتح الابواب والنوافذ، ليباشر التنظيف: كلفته ان يبلغ السيد تحياتي، ويخبره اني اضطررت إلى السفر فوراً إلى بوينس ايرس. فنظر إلي الخادم وقد اعترته الدهشة. وبصورة خاصة عندما قلت له اني ذاهب إلى المحطة مشياً على قدمي.

كان يترتب علي ان انتظر في المحطة الصغيرة عدة ساعات، وخلت للحظات ان ماريا قد تأتي، وترقبت هذا الاحتمال، بمرارة الرضى التي يشعر بها طفل حبس نفسه في مكان ما، لأنه يعتقد بانه ظلم، وراح ينتظر وصول من هو اكبر منه، ليبحث عنه، ويعترف له بالخطأ الذي اقترف بحقه. **لكن ماريا لم تأت.** عندما وصل القطار، والتفت القي آخر نظرة على الطريق، آملاً في ان **تظهر** في آخر لحظة، لم ارها، فشعرت بحزن لا حدود له.

كنت اطل من نافذة القطار، الذي انطلق باتجاه بوينس ايرس. مر بالقرب من كوخ نظرت اليه امرأة من تحت السقيفة. فخطرت لي فكرة بلهاء: «انني ارى هذه المرأة للمرة الأولى والأخيرة. وسوف لن اراها في حياتي ثانية». كانت أفكاري تطفو كقطعة فلين في نهر مجهول. وظلت تطفو حول تلك المرأة الواقفة تحت السقيفة فترة.. ماذا يهمني من تلك المرأة..؟.. ولكن، لم اتمكن من التخلص من التفكير بانها وجدت من أجلي للحظة، وانها لن توجد ثانية ابداً، فلقد كانت برأيي كأنها قد مات: لو ان القطار تأخر قليلاً، او لو أن احداً ناداها من داخل الكوخ، لما كان لهذه المرأة وجود في حياتي ابداً.

كان كل شيء يبدو لي عابراً، مؤقتاً، تافهاً، لا لزوم له. لم أكن افكر بصورة سليمة. وكانت ماريا تتراءى لي، اكثر فأكثر، شيئاً كئيباً لا وجود له. وما ان مضت بضع ساعات حتى بدأ تفكيري يستعيد دقته وسرعته المعهودتين.

كانت الأيام التي سبقت موت ماريـا أفظع أيام حياتي . ويتعذر علي الآن أن أقدم رواية كاملة عن كل ما شعرت به، وفكرت فيه، ونفذته، فانا ان كنت اتذكر بدقـة عجيبـة، كثيـراً من الاحـداث، بيـد ان هناك ساعات، وحتى ايام كاملة، تلوح لي كأحلام باهتة مشوهة. اتصور اني قضيت اياماً كاملة تحت تأثير الكحول مستلقيـاً على سريـري، او على مقعـد في منطقة الميناء. عندما وصلت إلى محطة كونستيتوسيون، اتذكر جيداً اني دخلت الحانة وطلبت عدة كؤوس من الويسكي تتـاليـاً، ثم اتـذكـر بقليـل من الـوضوح، اني نهضت واستقليت سيارة اجرة، ثم ذهبت إلى حانـة تقـع في شارع ٢٥ مايـو، وربـما في شارع لياندرواليم. تلا ذلك بعض الضجيـج، والمـوسيقى والصيحـات، وضحكة اغاظتني، وبضع زجاجات محطمة، واضواء باهرة، ثم اتذكر اني شعرت بثقل في جسمي، وبصداع رهيب في رأسي بينما انا في سجن مخفر للشرطة، وشرطي كان يفتح الباب، وضابط يقول لي شيئـاً ما، ثم وجـدتني ثانيـة اتسكـع في الشـوارع واحك جلدي بشدة. واظن اني دخلت إلى احدى الحانات مرة اخرى. وبعد ساعات (أو ايام) القى بي احد ما في مرسمي. ثم انتـــابتني كوابيس، كنت اراني تحت وطأتهـا، اسـير فوق سطـوح احدى الكنائس. واتذكر ايضاً اني صحوت مرة وأنا في غرفتي وسط الظلام تسيطر علي فكرة مخيفة، وهي أن الغرفة اتسعت حتى اللانهاية واني مهما ركضت لن اتمكن من بلوغ حدودها ابداً. لا ادري كم من الوقت كان قد مضى حينما تسربت خيوط ضوء الفجـر من النـافـذة، تحاملت إلى الحمام، والقيت بنفسي في المغطس وأنا لا ازال بمـلابسي. بدأ المـاء البـارد يجعلني اثوب إلى رشدي وبدأت تلوح في مخيلتي بعض الوقائع المنعزلة، انما بصورة ممزقة مشتتة، مثل طلائع الأشياء التي تطفو على سطـح المـاء بعـد طوفان كبير: . . ماريا عند الجرف، ميمي تقبض على مشربها،

محطة أجنيدي، دكان أمام المحطة اسمه «الثقة» أو ربما «المحطة»، ماريا تسأل عن اللوحات، أنا اصيح: «اية لوحات. . !»، هونتر ينظر إلي عابساً، أنا في الطابق الثاني قلق أسترق السمع لحوار ابني العم، بحار يقذف بزجاجة، ماريا تدنو مني وعيناها لا تنهان عن شيء، ميمي تقول تشيكوف، امرأة نجسة تقبلني وانا اصفعها بقبضتي، براغيث تنهش في جميع انحاء جسمي، هونتر يتحدث عن روايات بوليسية، سائق المزرعة. . برزت ايضاً نتف من احلام: الكنيسة من جديد، في ليلة حالكة السواد، والغرفة بحدودها التي لا نهاية لها.

ثم بقدر ما كانت برودة الماء تنعشني، كانت تلك النتف تتحد مع نتف اخرى، بدأت تنبثق في وعيي، لتعيد تشكيل الصورة، انما بشكل كئيب وموحش، مثل كآبة ووحشة المناظر التي تنعكس على سطح الماء.

خرجت من الحمام، وخلعت ملابسي المبللة ثم ارتديت غيرها، وباشرت كتابة رسالة إلى ماريا. كتبت اولاً، انني كنت أود ان ابرر لها فراري من المزرعة (شطبت كلمة «فراري» ووضعت كلمة «عودتي») وأضفت، أنني أقدر جداً الاهتمام الذي ابدته نحوي (شطبت كلمة «نحوي» ووضعت كلمة «شخصي») وانني ادرك انها طيبة جداً، ومفعمة بالعواطف النبيلة، على الرغم من ان «الاهواء المنحطة» تهيمن عليها أحياناً كما سبق لها وأعلمتني هي بالذات. وقلت لها، اني أقدر مسألة ابحار الزورق أو التردد على الحديقة بصمت عند الغسق، حق قدرها، بيد انه، كما يمكن لها ان تتصور، (شطبت كلمة «تتصور» ووضعت كلمة «تقدر»)، لم يكن يكفي لديمومة حب، أو اختباره: ان أبقى مضللاً لا أفهم كيف امكن لامرأة مثلها، ان تكون اهلاً لترديد كلمات الحب على مسامعي ومسامع زوجها، وان تقوم في الوقت ذاته، بمضاجعة هونتر، واضفت مؤكداً، انها تقوم ايضاً بمضاجعة زوجها ومضاجعتي. وختمتها بقولي، ان مثل تلك التصرفات، كما يمكن لها ان تدرك، تحتاج إلى التفكير ملياً. . الخ.

قرأت الـرسـالـة مجدداً، وبـدا لي بعد التنقيحات التي ذكرتها انها أصبحت جارحة بما فيه الكفاية، اغلقتها، وقصدت مراكز البر يد وارسلتها مسجلة.

ما ان غادرت مركز البريد، حتى ادركت امرين: الأول، هو اني لم أذكر في الرسالة لِمَ استنتجت أنها كانت عشيقة هونتر، والثاني، هو أني لم أعرف ماالذي كت ارمي اليه من جراء الاساءة اليها بلا أدنى رحمة. ألاجعلها تغير من سلوكها فيما لو ثبتت صحة تكهناني...؟. كان هذا يبدو في منتهى السخافة. ألاجعلها تتهافت علي...؟. ليس من المعقول ان أبلغ ذلك بمثل هذه التصرفات، إلا أني كنت احس في اعماقي فقط برغبة عارمة في ان تعود ماريا الي. ولكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا لا أكون صريحاً معها، فأشرح لها بلا إساءة، اني غادرت المزرعة لأنني لاحظت فجأة امارات غيرة هونتر...؟ وفي جميع الأحوال فان استنتاجي بأنها كانت عشيقة هونتر، كان، إلى جانب كونه جارحاً، بلا معنى تماماً، فهو على كل حال افتراض محض، استطعت ان اصوغه، بقصد توجيه تحقيقاتي المستقبلية فقط.

ها اني مرة اخرى ارتكب حماقة كما هي عادتي، فاكتب رسالة مرتجلة وأرسلها بسرعة. **الرسائل الهامة يجب الاحتفاظ بها يوماً واحداً على الأقل**، حتى نتبين بوضوح ما قد يترتب عليها من نتائج.

بقي لدي بصيص امل ضئيل. قسيمة البريد...! فتشت عنها في جميع جيوبي ولكن لم أعثر لها على أثر: لعلي، غباء مني، قد رميتها هناك. عدت مسرعاً إلى مركز البريد، واتخذت مكاني في الصف امام شباك الرسائل المضمونة، وحينما جاء دوري، سألت الموظفة، وأنا احاول ستر نفاقي، باذلاً جهداً مضنياً كي ابتسم:

ـ ألا تعرفيني...؟

نظرت المرأة إلي بدهشة: من المؤكد انها ظنتني مجنوناً، ولكي ابدد ما

اعتراها من لبس، قلت اني الشخص الذي بعث منذ قليل، رسالة إلى مزرعة «لوس اومبوس» ولكن يبدو أن تلك البلهاء قد ازدادت دهشة، فالتفتت نحو زميل لها، لعله يشاركها الدهشة اويقدم لها النصح في مسألة استعصى عليها فهمها، ونظرت الي ثانية، فقلت:

- لقد اضعت القسيمة.

ولما لم اتلق جواباً، اضفت:

- اعني انني احتاج إلى الرسالة، والقسيمة ليست معي.

تبادلت المرأة والموظف الآخر النظرات فترة، كأنهما شريكان يلعبان بالورق. ثم سألتني بلهجة من استحوذت عليه دهشة غريبة:

- تريد استرجاع الرسالة..؟

- اجل، انه كذلك.

- وحتى من دون ان تكون القسيمة معك..؟

كان يتعين علي ان اسلم فعلاً بان تلك الوثيقة الهامة لم تكن بحوزتي. وكانت دهشة المرأة قد بلغت أوجها. تمتمت بضع كلمات لم أفهمها، ثم عادت تنظر إلى زميلها، وتقول بصوت متهدج:

- يريد استرجاع الرسالة.

اعترى وجه الآخر ابتسامة تنم عن منتهى البلاهة، وكان يقصد الإفصاح عن ألمعيته، ونظرت المرأة إلي وقالت:

- استرجاعها امر مستحيل تماماً.

فاجبتها وانا اخرج بعض الأوراق من جيوبي:

- بوسعي ان أقدم لك وثائق.

فقالت:

- لا استطيع أن أفعل شيئاً، فالقانون لايسمح بذلك بتاتاً.

كانت تثير ني شامة على خدها نما عليها شعر طويل، فصرخت في وجهها بعنف:

ـ القانون، كما تعلمين، يجب ان ينسجم مع المنطق.

فسألتني بهدوء يسم عن الخبث.

ـ وهل تعرف القانون انت..؟

فقلت بتؤدة:

ـ لا حاجة بي إلى معرفة القانون يا سيدة.

وكنت أعلم أن كلمة سيدة لا بد وأن تجرح شعورها بصورة قاتلة.

لمعت عينا تلك المسخ غيظاً لكنني اردفت قائلاً:

ـ تعلمين يا سيدة ان القانون لا يمكن ان يتناقض مع المنطق: لا بد ان يكون من وضعه انساناً عاقلاً لا مجنوناً. فان اودعت البريد رسالة، وعدت فوراً اطلب استردادها فما ذلك إلا لأني قد نسيت امراً هاماً، والمنطق يقضي بان يلبى طلبي. ام ان مهمة البريد هي الاصرار على ايصال الرسائل ناقصة ومبهمة..؟ انه من الواضح والمعقول تماماً، ان البريد وسيلة من وسائل الاتصال، وليس وسيلة من وسائل القهر: البريد لا يستطيع ان يلزمني بأن أبعث رسالة لا أود ارسالها.

قالت:

ـ لكنك انت اردت ذلك.

فصرخت في وجهها:

ـ **أجل...! ... لكن أعود فاكرر لك أني لا أريد إرسالها الآن....!**

ـ لا تصرخ، كن مؤدباً، لقد فات الوقت الآن.

فقلت وانا اشير إلى سلة الرسائل المودعة:

ـ لم يفت الوقت بعد، لأن الرسالة ما زالت موجودة هناك.

بدأ النـــاس يحتجـــون بصخب. كان وجـــه تلك العـائس يرتجف غيظـاً. وباشمئزاز بالغ شعرت بان كل حقدي كان ينصب على الشامة.

قلت وانا أعرض عليها بعض الاوراق والوثائق الشخصية:

ـ يمكنني ان اثبت لك انني انا الشخص الذي اودع الرسالة.

لكنها عادت تقول:

ـ لا تصرخ، لست صماء، لا يمكن أن أتخذ قراراً كهذا.

ـ استشيري رئيسك اذن.

ـ لا استطيع. هناك كثير من الناس ينتظرون. عملنا كثير هنا، ألا تفهم؟

قلت:

ـ هذا الأمر يشكل جزءاً من العمل.

اقترح بعض الذين كانوا ينتظرون دورهم ان تعيد الي الرسالة حالاً، وتثابر على عملهـا، ترددت المـرأة قليـلاً، وتظاهرت بأنها مشغولة بعمل آخر، ثم ذهبت إلى الـداخـل وعادت بعد فترة طويلة لتفتش في الجعبة، وقد استحوذ عليها مزاج اشبه بمزاج كلب، وسألت بهلجة كأنها فحيح افعى:

ـ اية مزرعة..؟

فأجبت بهدوء ينم عن غيظ دفين:

ـ مزرعة «لوس اومبوس».

بعـد ان نقبت بصـورة مصطنعـة عن الـرسـالـة طويلاً، تناولتها ثم راحت تتفحصهـا كما لو انهـا تعـاين سلعـة معـروضـة للبيـع، وهي تشك في الفائدة من شرائها. قالت:

ـ عليها الحروف الأولى من الاسم، والعنوان فقط.

ـ وماذا اذن..؟

ـ ما الوثائق التي تملكها لكي تثبت انك انت الذي اودعها..؟

قلت وانا اعرض عليها المسودة :

ـ لدي مسودة الرسالة .

تناولتها وتفحصتها، ثم اعادتها إلي وقالت :

ـ وكيف نعرف ان هذه هي مسودة الرسالة . . ؟

ـ الأمر في غاية البساطة : لنفض المغلف ونتحقق .

ترددت المرأة لحظة، ونظرت الى مغلف الرسالة المغلق، ثم قالت :

ـ وكيف سنفتح هذه الرسالة، ان كنا لا نعرف بعد، ان كانت تخصك؟ . . انا لا استطيع أن أفعل ذلك .

اخذ الناس يحتجون ثانية . وكان بودي ان اقوم بعمل يتسم بالهمجية .

واردفت المسخ تقول :

ـ هذه الوثيقة لا تفيدك .

فسألتها بمجاملة ساخرة :

ـ ايبدو لك، ان بطاقة هويتي الشخصية ستكون كافية؟

ـ بطاقة الهوية الشخصية . . ؟

فكرت قليلاً، وعادت تمعن النظر في الرسالة، ثم قررت :

ـ كلا، بطاقة الهوية الشخصية وحدها لا تكفي، لا، ليس على المغلف سوى الحروف الأولى من الاسم فقط، يتعين عليك أن تقدم لي أيضاً، وثيقة اثبات اقامة . والا فبطاقة الخدمة العسكرية، لأنها تتضمن مكان الاقامة .

ثم فكرت ثانية واضافت تقول :

ـ وبما انه يتعذر الا تكون قد غيرت مكان اقامتك منذ أن بلغت الثامنة عشر من عمرك، فمن المؤكد انك ستحتاج إلى وثيقة اثبات اقامة ايضاً .

انفجر في اعماقي غضب جامح، احسست انه كان يطال ماريا ايضاً، والاغرب من هذا انه كان يطال ميمي كذلك .

فصحت وانا انصرف :

ـ ابعثي بها كما هي ، واذهبي إلى جهنم .

وغادرت مركز البريد ، وفي اعماقي يتحرك الف شيطان ، وحتى اني فكرت بالعودة الى النافذة عساي اتمكن بصورة او باخرى من احراق جعبة الرسائل : ولكن كيف . . . ؟ بالقاء عود ثقاب . . ؟ من السهل ان ينطفىء وهو في طريقه اليها . لو القيت اولاً دفقة من النفط فسيكون التأثير مؤكداً ، لكن ذلك يعقد الامور . وفكرت مع ذلك ان انتظر خروج الموظفين المناوبين كي اشتم تلك العانس .

بعد ساعة من الانتظار، قررت ان اذهب. ما عساي اجني، في نهاية المطاف ان شتمت تلك البلهاء. . . ؟ لقد اجترت طيلة تلك الفترة سلسلة من الخواطر، ادت الى تهدئة روعي: كانت الرسالة موفقة تماماً، ويستحسن ان تأخذ طريقها إلى ماريا (كثيراً ما حدث لي ما يلي: اصارع بلا تعقل، لازالة عقبة تحول بيني وبين ما اعتبره لازماً او ملائماً ثم استسلم للهزيمة ساخطاً، لاجد بعد مدة من الزمن ان القدر في النهاية كان مصيباً) والحقيقة هي انني، عندما شرعت في كتابة الرسالة، لم افكر ملياً، وحتى بعض عباراتها الجارحة، كانت تبدو لي أنها لا تستحقها. ولكن في تلك اللحظة، عندما فكرت في كل ما سبق الرسالة، تذكرت فجأة حلماً رأيته في احدى ليالي سكري تلك: . . . كنت اتجسس من مخبأ، فرأيت نفسي جالساً على كرسي، وسط غرفة مظلمة، لا أثاث فيها ولا سواه وخلفي شخصان ينظر احدهما إلى الآخر نظرات شيطانية ساخرة. كان اولهما ماريا وكان الآخر هونتر.

عندما تذكرت هذا الحلم تملكني حزن لا يرحم، فغادرت مركز البريد، وبدأت أمشي متحاملاً على نفسي.

ما ان مضى قليل من الوقت حتى وجدتني في حديقة لاريكوليتا اجلس على مقعد تحت شجرة كبيرة وارفة. وشرعت الاماكن والاشجار والممرات التي شهدت أحلى اوقاتنا تحول مسار أفكاري. ما الذي كان، في نهاية الامر يجعلني اكن العداء لماريا يا ترى. . ؟ وبدأت اطيب لحظات حبنا (لفتة منها، نظرة حنان، يدها وهي تداعب شعري) تمتلك روحي برفق وعناية، كتلك التي نحتضن بها مخلوقاً عزيزاً اصيب بحادث واصبح لا يقوى على تحمل ادنى قسوة مهما كانت قليلة الاهمية. وعدت شيئاً فشيئاً، استرد هدوئي، وأمتلك زمامي، فاخذ حزني

يتحـول إلى قلق، وكـراهيتي لماريـا تتحول إلى كراهية لذاتي، وشرودي يتحول إلى شعـور طارىء بضـرورة الاسـراع إلى منـزلي. وبقـدر ما كنت اقـترب من المـرسم، كنت ادرك بصـورة اوضـح، ما الـذي كنت اريـده: ان أكلم ماريا، ان اهتف الى المزرعة حالاً، وبلا هدر للوقت. كيف لم يخطر ببالي ذلك من قبل...؟

عنـدمـا اتصلت هاتفيـاً بالمزرعة، كدت افقد القدرة على الكلام، اجابني احـد الخـدم فطلبت منـه ان يصلني بالسيـدة ماريا حالاً، وبلا أي تأخير، وما ان انقضت لحظـات، حتى سمعت صوتـه ثانيـة يقول، إن السيدة ستهتف لي خلال مدة ساعة تقريباً.

بدا لي الانتظار طويلاً لا نهاية له.

لا اتـذكـر ما دار بيننا في تلك المحادثة الهاتفية تماماً، انما اذكر اني، بدلاً من ان اطلب منهـا الصفـح، بسبب تلك الـرسـالـة (التي كانت دافعيَ لتلك المكالمة) وجـدتني أقـول ما هو أقسى من مضمونها. ومن المؤكد أن ذلك لم يحدث بلا سبب معقول، والحقيقة هي اني بدأت اكلمها برقة وتواضع، لكن الألم الذي كان يخالط نبرة صوتها، وعدم ردها على أي من اسئلتي المحددة، كما هي عادتها، اخذ يثير سخطي. وكـان الحـوار أو بالأحـرى، حديثي الرتيب، يزداد عنفاً، وبقدر ما كان عنفه يشتد كانت هي تبدو اكثر تألماً وذلك كان بالمقابل يزيدني سخطاً، لأنني كنت واثقـاً من صواب موقفي وبـاطـل تألمهـا. وانتهى بي الأمـر إلى أن أصـرخ في وجههـا قائلاً اني قد انتحر، وانها ليست سوى مهرجة، واني بامس الحاجة إلى رؤيتها في بونيس ايريس.

لم تجب على أي من اسئلتي المحـددة، ولكنهـا وعـدت، بسبب الحـاحي ووعيـدي بالانتحـار، ان ترجـع إلى بونيس ايرس في اليوم التالي (رغم انها لم تكن تعلم لماذا..)

قالت بصوت واهن:

ـ لن نجني سوى الاساءة إلى بعضنا البعض، بقسوة، مرة اخرى.

قلت لها:

ـ ان لم تأت سوف انتحر. فكري جيداً قبل أن تتخذي أي قرار.

وعلقت سماعة الهاتف ولم أضف اية كلمة اخرى، والحقيقة هي اني كنت في تلك اللحظة مصمماً على الانتحار إن لم تأت لتوضيح الموقف. وشعرت بارتياح غريب وانا اقرر «سوف ترى» وكأن الأمر ليس سوى نوع من الانتقام.

كان ذلك اليوم بغيضاً .

غادرت مرسمي وقد استحوذ علي غضب عارم . وعلى الرغم من انني كنت سأراها في اليوم التالي ، فقد كنت مكتئباً ، وشعرت بحقد دفين مبهم ، اعتقد الآن ، بانه كان حقداً علي انا بالذات ، لأنني كنت أعلم في قرارة نفسي ، ان شتائمي الفظة لا تستند إلى أي اساس من الصحة . ولكن كان يؤجج ثورة غضبي ، انها لم تكن تدافع عن نفسها ، كما ان صوتها المشبع بالألم والوضاعة كان ، بدلاً من ان يهدىء من روعي ، يثير ني اكثر.

احتقرت نفسي ، افرطت عصر ذلك اليوم في تناول الخمرة ، وأدّى بي ذلك إلى اثارة مشاجرات في احدى حانات شارع الياندرو اليم . استأثرت بالمرأة التي بدت لي اكثرهن فجوراً ، وتحديت بحاراً لأنه داعبها بنكته بذيئة . ولا أتذكر بعد ذلك ، سوى اننا بدأنا العراك وسط تهليل الجميع ، وتدخل بعض الحاضرين للتفريق بيننا . ثم اتذكرني مع تلك المرأة في الشارع ، وقد انعشتني برودة الجو. عند الفجر رافقتها إلى المرسم . ما ان وصلنا حتى بدأت تهزأ من لوحة معلقة على حامل . (لا أدري إن كنت قد قلت ان لوحاتي التي تلت منظر النافذة اخذت تتبدل تدريجياً : كأنما أشخاص وأشياء أعمالي الفنية القديمة ، قد منيت بكارثة كونية . سوف اتحدث عن ذلك فيما بعد ، لأنني اود الآن ان اروي ما حدث في تلك الأيام الحاسمة) نظرت المرأة الى اللوحة وهي تضحك ، ثم التفتت الي وكأنها تطلب ايضاحاً . قلت لها ألا تضيع الوقت في ترهات . وكما يمكنكم ان تفترضوا فأنا لا يهمني قيد أنملة ، الرأي الذي يمكن أن تكونه تلك البائسة ، عن أعمالي الفنية .

كنا في السرير معاً عندما خطرت لي فجأة فكرة مريعة : كانت تعبيرات هذه

الرومانية وانا أضاجعها، تشبه تبعيراً لاحظت مرة انه بدر عن ماريا.

فصحت كالمجنون وأنا ابتعد عنها مشمئزاً:

ـ عاهرة... ! لاشك انها عاهرة... !

انكفأت الرومانية كالأفعى، وعضت على ذراعي حتى ادمته. كانت تحسب انني اعنيها. انتفضت يملأني احتقار وحقد على البشرية جمعاء، ثم سحبتها من المرسم وانا اشبعها ركلاً وقلت لها انني سأذيقها ميتة الكلاب ان لم تذهب في الحال وخرجت وهي تصرخ وتكيل الشتائم رغم كمية النقود التي رميت بها خلفها.

اصبت بالذهول، ووقفت مدة طويلة وسط المرسم، لا أدري ماذا افعل، ولا اهتدي إلى ما يساعدني على تنسيق مشاعري وافكاري. لكنني في نهاية المطاف حزمت امري: ذهبت إلى الحمام، وملأت المغطس بالماء البارد، ونزعت ملابسي، ثم تمددت فيه. كنت اود ان افكر بوضوح، ولذا بقيت في الماء حتى انتعشت تماماً، وشيئاً فشيئاً تمكنت ان اعيد إلى عقلي كامل نشاطه. حاولت ان افكر بدقة مطلقة، لأنني شعرت اني قد وصلت إلى نقطة حاسمة. ماذا كانت نقطة البدء..؟ تداعت كلمات كثيرة، عندما طرحت هذا السؤال على نفسي. كانت تلك الكلمات هي: رومانية، ماريا، عاهرة، لذة، تصنع وفكرت: ان تلك الكلمات لا بد وان تمثل الواقعة الأولية، والحقيقة الجوهرة التي ينبغي ان انطلق منها. وبذلت مزيداً من الجهد، كي ارتبها في النسق الذي يجب ان تكون فيه، حتى توصلت الى صياغة الفكرة في هذه الصيغة الفظيعة التي لا يرقى اليها الشك: «... **ماريا والعاهرة أبدتا تعبيراً مماثلاً. تكلفت العاهرة اللذة، وكذلك تكلفت ماريا اللذة. ماريا إذن عاهرة...**

وصرخت وانا اقفز من المغطس:

ـ عاهرة.. عاهرة.. عاهرة..!

كان عقلي قد بدأ ينشط كما في أفضل أيامي إشراقاً: رأيت بجلاء أنه لابد لي من ان اكون حاسماً، والا استسلم إلى خداع صوتها الحزين وروحها المراوغة مرة اخرى. ينبغي ان ارضخ لتوجيهات المنطق وحسب، وان امضي مع عبارات ماريا المشبوهة، وايماءاتها وصمتها المبهم حتى النهاية وبلا ادنى وجل.

كنت كمن يستعرض اطياف حلم مزعج، تقوم بحركات دورانية في ضوء بقعة هائلة من نور مبهر. مرت امامي وانا ارتدي ثيابي بسرعة، جميع لحظات الشك والريبة: المكالمة الهاتفية الأولى مقرونة بالقدرة العجيبة على التصنع والاحتراف الطويل الذي كان يسفر عنه تلاعبها في نبرات صوتها. ما يحيط بها من ظلال غامضة كان يفضحها الكثير من عباراتها المبهمة. ذلك الخوف من أن «تؤذيني»، الذي لا يمكن ان يعني سوى: «سوف اؤذيك باكاذيبي وتناقضاتي وتصرفاتي الخفية وعواطفي ومشاعري المصطنعة»، فهي لا يمكن ان تسيء إلي لو احبتني حباً حقيقياً. مشهد اعواد الثقاب المؤلم. كيف كانت في البدء تنفر حتى من قبلتي، وكيف استسلمت للمتعة الجسدية عندما وضعتها امام خيارين. اما الاعتراف بنفورها واشمئزازها من متعة الجسد، او التسليم، في احسن الأحوال، بان حبها لي، ليس سوى تعبير عن مشاعر الامومة او الاخوة، وهذا ما كان يحول في كلا الحالتين دون أن أصدق اختلاجات المتعة التي كانت تبديها، أو الكلمات التي كانت تتفوه بها، اوغيبوبة النشوة التي كانت تكسوملامحها. خبرتها الجنسية الدقيقة، التي يصعب ان تكون قد اكتسبتها من فيلسوف رواقي كأجيندي. اجاباتها على اسئلتي بصدد حبها لزوجها، التي كانت تبرهن، مرة اخرى، على قدرتها على الخداع بافتعال الاحاسيس والمشاعر. حلقة الاسرة المكونة من سلسلة من المنافقين والكذابين. الرصانة والمهارة التي لجأت اليهما كي تخدع ابني عمها في مسألة لوحات الميناء المزعومة. المشهد عند العشاء في المزرعة، ونقاشهما في الطابق الأول، ومشاعر الغيرة التي بدت على وجه هونتر. تلك العبارة التي تسربت منها

عنـد الجـرف: «. . . كما كنت قد اخطأت مرة. . .» . . . مع من. . ومتى . . . وكيفـ. . .؟ و«. . . الـوقـائـع العـاصفـة القـاسية. .» التي حدثت لابن عمها الآخر، كانت أيضاً عبارات تسربت من بين شفتيها بلا وعي نم عنه سكوتها وعدم ردهـا على ما طلبتـه من ايضـاح لأنهـا لم تكن تصغي الي، وبكـل بسـاطة لم تكن تسمعنتي وهي مستغـرقـة في طفـولتهـا التي لعـلي منها قد حصلت على الاعتراف الـوحيـد الاصيـل الـذي افضت به بحضـوري. واخـيراً ذلـك المشهد المريع مع الـرومـانيـة او الـروسيـة او كائنة من كانت. او تصدر عن تلك البهيمة القذرة التي كانت تسخـر من لوحـاتي، وعن تلك المخلوقـة الـرقيقة التي كانت تشجعني على الرسم، اختلاجات المتعة ذاتها في لحظة من لحظات حياتها. . . !

يا إلهي. . اليس مدعـاة لليأس من الطبيعـة الانسـانيـة، مجرد التفكير بان انفاقاً مظلمة خفية تمتد ما بين بعض الحان براهمز، وبين مصرف للقذارة. . . ؟

كثير من النتائج التي خلصت اليها. بعد ذلك الفحص الواعي، انما التصوري، كانت افتراضات لم اتمكن من اثبات صحتها، رغم يقيني باني لم اكن مخطئاً. ولكن ادركت فجأة اني كنت حتى تلك اللحظة. اسقط من اعتباري فرصة استقصاء هامة وهي: الاطلاع على رأي اشخاص آخرين. ورحت، لأول مرة، افكر بارتياح شديد ووضوح لا عهد لي به من قبل اطلاقاً، في اجراء كهذا، وفي الشخص المناسب: انه لارتيغ، كان صديق هونتر، صديقه الحميم، وكان في الواقع انساناً حقيراً مثله: كتب ديوان شعر عن الغرور في جميع الامور الانسانية، لكنه كان يشكو دائماً من انهم لم يمنحوه الجائزة الوطنية. لم يكن يثنيني اي تردد، وباشمئزاز بالغ، انما بحزم، اتصلت به، وقلت له انه يتعين علي ان اراه حالاً، وذهبت الى منزله لاقابله.امتدحت ديوان شعره، وكان يود الاسترسال في الحديث عن نفسه، فتضايق كثيراً عندما فاجأته بسؤال في منتهى الصراحة، كنت قد اعددته سابقاً:

- منذ متى اصبحت ماريا ايريبارني عشيقة هونتر؟

لم تكن أمي تسأل أبداً إن كنا أكلنا تفاحة، لأننا كنا سننكر، بل كانت تسأل كم تفاحة أكلنا مبتدئة بدهاء، تقصي ما تود معرفته، وهو، هل أكلنا الفاكهة أم لا، وهكذا كنا ننجر بخفة تحت تأثير السؤال عن الكمية، فنجيب اننا أكلنا تفاحة واحدة فقط.

لارتيغ مغرور، لكنه ليس بليداً: شك في ان سؤالي ينطوي على امر غامض، وظن انه يتجنب الانزلاق عندما اجاب:

- لا أعلم شيئاً عن ذلك.

ثم عاد يتحدث عن الديوان والجائزة، فصحت باشمئزاز بالغ:

ـ ياله من ظلم بالغ ارتكبوه بحق ديوانك. . !

وخرجت مسرعاً. لم يكن لارتيغ بليداً، ومع ذلك، لم يدرك ان كلماته كانت تكفيني.

كانت الساعة تقارب الثالثة عصراً. لا بد وان تكون ماريا قد وصلت إلى بوينس ايرس، اتصلت بها هاتفياً من احد المقاهي: لم اقو على الانتظار حتى وصولي إلى المرسم. ولما اجابتني قلت لها:

ـ يجب أن أراك حالاً.

حاولت أن أخفي ضغينتي خشية أن يراودها الشك، فتتخلف عن الموعد، واتفقنا على ان نلتقي عند الساعة الخامسة في حديقة لاريكوليتا، كعهدنا دائماً.

قالت بأسى:

ـ حسناً، لكنني لا أرى اننا سنجني اية فائدة.

اجبتها:

ـ امور كثيرة. . . امور كثيرة.

فسألت بصوت يخالطه اليأس:

ـ أتعتقد ذلك. . ؟

أجبت:

ـ بلاشك.

قالت:

ـ لكني اعتقد اننا لن نحصد سوى مزيد من الاذى، ومزيد من الهدم في الجسر الواهن الذي يصل بيننا، وسنسيء الى بعضنا البعض بقسوة اشد وطأة. لقد اتيت لأنك طلبت ذلك بالحاج، وكان ينبغي ان ابقى في المزرعة: ان هونتر مريض.

قلت في دخيلتي «كذبة اخرى» ثم اجبتها بجفاء:

ـ شكراً. اتفقنا اذن على اللقاء عند الساعة الخامسة تماماً.

وافقت ماريا وهي تتنهد.

كنت قبل الخامسة في حديقة «لاريكوليتا»، انتظر على المعقد الذي اعتدنا ان نجلس عليه سوياً. وما ان رأيت الأشجار والممرات والمقاعد التي كانت شواهد على حبنا، حتى خيم علي الحزن وغمرت روحي الكآبة. فكرت بيأس وحسرة في اللحظات التي قضيناها ما بين حديقة «لاريكوليتا» وحديقة فرنسا، وكيف اني آمنت بخلود حبنا، الذي كان يبدو في تلك الاثناء، بعيد المنال. كل شيء كان عجيباً مشرقاً، وكل شيء اصبح الآن قاتماً متجمداً بارداً في عالم لا يحس ولا يبالي. وللحظة فان ذعري من تهديم ما تبقى لي من حبنا، والبقاء وحيداً إلى الأبد، جعلني اتسردد. وفكرت، لعله من الممكن أن أطرح جميع الشكوك التي تعذبني جانباً. ماذا يعنيني ما كان من امر ماريا خارج نطاق علاقاتنا. . . ؟ وحسبت وانا أرى تلك الأشجار وتلك المقاعد أنني لا أستطيع صبراً على فقدان مساندتها أبداً، حتى وإن لم يتبق سوى تلك اللحظات من الوصال ومن الحب الغامض الذي يجمعنا. وبقدر ما كنت اتوغل في هذه التأملات، كانت تتملكني اكثر فأكثر، فكرة تقبل حبها هكذا كما هو بلا شروط وتخيفني اكثر فأكثر، فكرة البقاء وحيداً خالي الوفاض من أي شيء على الاطلاق. ومن ذلك الرعب أخذ ينمو ويترعرع ضرب من التواضع الذي يمكن ان يتوفر فقط، عند المخلوقات التي لا تملك ارادة الاختيار. واخيراً عندما انتبهت إلى ان الاوان لم يفت بعد، وإلى انه يمكن لي ان ابدأ حياة جديدة منطلقاً من لحظة الصفاء تلك، بدأت تتملكني سعادة لا حدود لها.

لكن ويا للأسف، فقد خيبت ماريا املي مرة اخرى. عند الساعة الخامسة والنصف، انتباني القلق وجن جنوني، فعاودت الاتصال هاتفياً، قيل لي انها عادت إلى المزرعة بصورة مفاجئة. ومن دون ان ادرك ماذا كنت أفعل صرخت بالخادمة:

ـ ولكننا كنا قد اتفقنا على ان نلتقي عند الساعة الخامسة!

فاجابتني بشيء من الذعر:

ـ لا علم لي بشيء يا سيدي. لقد خرجت السيدة في السيارة منذ فترة وجيزة وقالت انها ستبقى هناك مدة اسبوع على أقل تقدير.

اسبوع على أقل تقدير..!.. بدا ان العالم ينهار، وان كل شيء غير معقول ولا نفع فيه. خرجت من المقهى اسير على غير هدى. رأيت اشياء سخيفة: مصابيح، اناس يروحون ويجيئون، كما لو ان في ذلك جدوى. كم كنت انشد رؤيتها عصر ذلك اليوم، وكم كنت بأمس الحاجة اليها...! وكم كان نذراً يسيراً ما كنت مستعداً لطلبه، بل لاستجدائه منها...! ولكن، فكرت بمرارة بالغة، ان كان لها ان تختار بين مواساتي في احدى الحدائق، وبين مضاجعة هونتر، في المزرعة، فلا يمكن ان يكون هناك أي مجال للشك ابداً. وفيما كنت مستغرقاً في هذا التفكير، خطرت ببالي فكرة، بل كنت على يقين من امر ما. عدوت بضعة مئات الأمتار التي تبقت لاصل إلى المرسم، ومن هناك عاودت الاتصال هاتفياً بمنزل اجيندي، سألت ان كانت السيدة قد تلقت مكالمة من المزرعة قبل ان تذهب.

اجابتني الخادمة بعد فترة وجيزة من التردد:

ـ نعم

ـ مكالمة من السيد هونتر، أليس كذلك..؟

تلكأت مرة اخرى، وسجلت في ذاكرتي ترددها الأول والثاني، ثم قالت اخيراً.

ـ بلى.

كانت تتملكني آنئذ مرارة انتصار شيطاني. فالأمر اذن، كما كان حدسي تماماً.! واستبد بي في الوقت ذاته، شعور بوحدة مطلقة، وغرور احمق: غرور بأني لم أكن مخطئاً.

فكرت في ما بيللي

كنت على أهبة الانطلاق عندما راودتني فكرة، ذهبت إلى المطبخ، تناولت سكيناً كبيرة وعدت إلى المرسم. ما اقل ما بقي من اعمال خوان بابلو كاستيل الفنية القديمة..! سيجد اولئك السخفاء الذين شبهوني بمهندس، اسباباً للاعجاب الآن! وكما لو أن الانسان يمكن ان يغير حقاً...! كم من أولئك السخفاء ادرك ان بركاناً على وشك الانفجار، كان يكمن وراء هندساتي، ووراء «الناحية الفكرية»؟. لا احد. ولكن سيكون لديهم الآن متسع من الوقت ليروا هذه الأعمال الشامخة وقد استحالت مزقاً، وهذه التماثيل ارباً، وهذه الانقاض دخاناً، وهذه السلالم جحيماً..!. هنا كانت في يوم من الأيام كمتحف كوابيس قد تحجرت، كمتحف لليأس والعار. ولكن هناك ما كنت اود تحطيمه من دون ان اترك له اي اثر. القيت عليه النظرة الأخيرة، واحسست باختناق مؤلم، لكنني لم اتردد من خلال دموعي المنهمرة رأيت كيف كانت ملامح ذلك الشاطىء الموحش، وتلك المرأة البعيدة المتعطشة، وذاك الانتظار الطويل، تنهار مزقاً كلها. دست اشلاءها ومرغتها إلى ان تحولت الى اسمال وسخة. سوف لن يلقى ذلك الانتظار السخيف اي جواب بعد الآن ابداً...! لقد ادركت، اكثر من أي وقت مضى، ان ذلك الانتظار كان عقيماً تماماً...!

هرعت إلى منزل مابيلي فلم أجده: قيل لي إنه لابد وأن يكون في مكتبة (فيو) توجهت إلى المكتبة فوجدته هناك. جذبته من ذراعه وانتحيت به جانباً، وقلت له انني بامس الحاجة إلى سيارته. نظر إلي بدهشة، وسألني ان كان هناك ثمت امر خطير. لم أكن قد اعددت نفسي لهذا الموقف، لكن خطر ببالي ان اقول له ان حالة والدي بالغة الخطورة، والقطار لا يسافر قبل يوم غد. تطوع ان يأخذني هو فرفضت. قلت له، انني افضل ان اذهب وحدي. عاد ينظر إلي بدهشة، ولكن انتهى به الأمر إلى تسليمي مفاتيح السيارة.

كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء. قدرت أنه يمكن أن أصل بسيارة مابيلي خلال اربع ساعات، بحيث اكون هناك عند الساعة العاشرة ليلاً: وفكرت: «انها ساعة ملائمة».

ما ان خرجت من المدينة، واتخذت طريقي في اتجاه «ماردل بلاتا» حتى اطلقت السيارة بسرعة ماية وثلاثين كيلو متراً في الساعة، وبدأت اشعر بنشوة غريبة، اعزوها الآن إلى ثقتي بانني كنت، في نهاية المطاف، مضي امراً محدداً. فيها هي، من كانت تبدو كأنها تقف وراء جدار زجاجي منيع استطيع من خلاله ان اراها، ولكن يستحيل علي ان اسمعها او المسها. وهكذا مع اليأس والكآبة عشنا، والجدار الزجاجي يفصل بيننا.

في غمرة تلك النشوة، كانت تنتابني مشاعر ذنب وحب وكراهية، تلوح لي ثم تتوارى تباعاً: كانت قد ادعت أنها مريضة، فزادني ذلك حزناً، وكنت قد اصبت عندما اتصلت ثانية بمنزل اجيندي فملأني ذلك غماً. أماريا، هي التي يمكن ان تضحك بخفة، ويمكن ان تستسلم بين ذراعي ذلك الفاجر، ذلك الداعر، ذلك الشاعر الدعي المغرور... ! كم كان ذلك مدعاة احتقاري لها.. ! نشدت المتعة الموجعة، وأنا أتصور قرارها الأخير هذا في صورته الأكثر تنفيراً: فمن جهة كنت أنا، وكان الموعد ان تلقاني مساء ذلك اليوم. لماذا...؟... كي نتحدث عن امور مبهمة ومريرة، كي نقف ثانية عبر الجدار الزجاجي وجهاً لوجه، كي نتأمل نظراتنا المتعطشة اليائسة، كي نحاول فهم طلاسمنا، كي نتمنى عبثاً أن يمسى أحدنا الآخر ويلامسه ويداعبه من خلال الجدار الزجاجي، كي نحلم مرة اخرى ذلك الحلم المستحيل. ومن جهة اخرى كان هونتر، وكان يكفيه ان يتناول الهاتف ويطلب منها الذهاب كي تهرول مسرعة إلى سريره. كم كان مضحكاً وكم كان محزناً ذلك كله... !

وصلت المـزرعـة عنـد السـاعـة العاشرة والربع . تركت السيارة في الطريق العـام . كي لا يسـترعي صوت محركهـا الانتبـاه ، ومشيت . كانت حرارة الجـو لا تطاق ، وكان يخيم هدوء ثقيل ، . ولا تسمع سوى همهمات امواج البحر . كان ضوء القمـر يترا ءى ما بين فينـة وأخرى من خلال الغيوم الداكنة ، واستطعت ان اشق طريقي ، دون كبـير عنـاء على طول مدخـل المـزرعـة ، تحف بي اشجـار الكينا . عنـدمـا وصلت إلى الـدار الكبـيرة وجـدت الاضواء تتلألأ من الطابق الأرضي ، وحسبت انهما لا يزالان بعدُ في غرفة الطعام .

كنت اشعر بحرارة الجو الساكنة ، التي تسبق عادة عواصف الصيف العاتية وتنذر بهبوبها . كان من الطبعي ان يخرجا بعد العشاء . تواريت في الحديقة في زاوية تتيح لي مراقبة من يمر على السلم ، وانتظرت .

كان انتظـاراً طويـلاً لا نهايـة له. لا ادري كم مضى في حسـاب عقـارب السـاعـات، من ذلـك الـزمن الكوني الغامض الذي لا يمت بصلة إلى مشاعرنا ومصـائـرنـا ولا يعبأ بنشـوء حب او انهياره، ولا بانتظار موت. لكن ما انقضى من زمني أنـا كان رحبـاً معقـداً ومشحـونـاً بأشياء وذكريات، كان نهراً مظلماً صاخباً حيناً، وهـادئـاً هدوءاً غريبـاً حينـاً آخـر كأنـه بحر ساكن أزلي. حيث أقف فيه وماريا، وجهاً لوجه، جامدين يتأمل احدنا الآخر. وكان في أحيان اخرى يعود ثانية ليصبح نهراً يجرفنـا كأننـا في حلم من احـلام الطفولة،وكنت أراها تنطلق على جوادها، شعرها تذروه الرياح، وعيناها مبهورتان، واراني في قريتي في الجنوب، مريضاً في غرفتي، وجهي ملتصق بزجـاج النـافـذة، اشاهد الثلج بعينين مبهورتين ايضاً. وكنا كما لو اننا نعيش معاً في سراديب او انفاق متوازية، بروحين متماثلتين، وزمنين متماثلين، ولايعـرف أي منـا أنه يسير بمحاذاة الآخر، لنجد أنفسنا في نهاية هذه الانفاق أمام مشهـد قمت أنـا برسمـه، كرمـز مكـرس لها وحدها، كأنه إعلان سري على أنني كنت هناك، وعلى ان السراديب في نهاية المطاف قد اتحدت، وان ساعة اللقاء قد ازفت.

ساعـة اللقـاء قد أزفت. . ! . . ولكن، أحقـاً أن السراديب قد اتحدت وأن روحينـا قد تواصلتـا. . ؟ . . يالغبـاء ماتـوهمت في كل هذا. . !لا، فالسراديب ما زالت متـوازيـة كما كانت، وان كان الجدار الذي يفصل بيننا اصبح الآن، كجدار زجـاجي، يمكن أن أرى ماريـا من خلالـه كصـورة صامتـة لايمكن مسهـا. . لا. . وحتى ذلـك الجـدار لم يكن كذلـك دومـاً: كان احيـاناً يعود ثانية ليصبح من حجر أسـود، وعنـدئـذٍ، لاأدري ماكـان يجري وراءه، ومـاكـان من أمرها في تلك الفترات المجهـولـة، ومـاكـان يقـع من أحـداث غريبـة. وحتى كنت أحسب، أن محيـاها كان في تلك الفـترات يتغـير وان تكشـيرة سخـريـة كانت تشوه وجهها، وانها ربما

كانت تتبـادل الضحكـات مع شخص آخـر، وان قصـة السـراديب كلهـا كانت اختـلاقـاً ومظنـة يثير ان السخرية، وأنه كان هناك، في جميع الأحوال، نفق واحد فقط، مظلم وموحش، هو نفقي أنا، النفق الذي أمضيت فيه طفولتي، وصباي، وعمـري كله. وكنت قد رأيت هذه الفتـاة من خلال إحـدى تلك القطع الشفافة في الجـدار الحجـري، واعتقـدت بسـذاجـة، أنهـا كانت آتيـة من نفق آخر، مواز لنفقي، بينما هي في الواقع، تنتمي إلى العالم الواسع، إلى عالم الذين لا يعيشون في الانفـاق، والـذي لاحدود له، ولعلها، بدافع من الفضول اقتر بت من احدى نوافذي الغريبة، وواجهت مشهد عزلتي الابدية، او اسرتها اللغة الخرساء، مفتاح سر لوحتي. وعنـد ذلـك. بينـما كنت ماأزال أتوغل في سراديبي، كانت هي في الخارج تعيش حيـاتهـا العـاديـة، الحيـاة الصـاخبـة التي يحيـاها اولئك الذين يعيشون في الخـارج، تلك الحيـاة الغـريبـة التافهة حيث الرقص والحفلات والمرح والمجون. وكنت في بعض الاحيان، عندما امر امام احدى نوافذي، اجدها تنتظرني بشوق صامتة (لم تنتظرني..؟.. ولم صمتها وشوقها..؟) ولكن، كان يحدث في أحيان اخـرى ان تصـل متأخـرة، أو تنسى هذا المخلوق المسكـين الحبيس، عند ذلك. كنت اراهـا من بعيـد، ووجهي ملتصق بالجدار الزجاجي، تضحك او ترقص بلا مبالاة، أو ـ ما كان أسوأ ـ أنني كنت، لا أراها أبداً، وأتصورها في أماكن، صعبة، أو ماجنة، فأشعر بعزلة مطلقة تطبق على مصيري تفوق حدودها كل ماكنت أتصور.

بعـد ان انقضى هذا الـزمن الرحب، زمن البحار والانفاق، هبطا السلم. عندما رأيتها تتأبط ذراعه شعرت بأن قلبي اصبح بارداً صلداً كقطعة من جليد.

نزلا ببـطء، كما لو انهما ليسا على عجلة من امرهما، وفكرت بمرارة، ولماذا العجلة..؟ ومـع ذلـك، كانت تعلم أني كنت بأمس الحـاجة اليها، وأنني كنت، عصـر ذلـك اليـوم، أنتظـرهـا وكنت عبثـا، أعاني من قسوة كل لحظة من لحظات ذلــك الانــتظــار الطــويــل. كانـت تعلم في تلك اللحظــة ذاتهــا التي كانت تتمتــع فيهــا بهدوء أنـه كان يعـذبني جحيم لايطـاق من الأفكـار والتصـورات. أي وحش قاس حقـير قذر، يمكن أن يكون قد قبع في قلب من هي أشد النساء رقة...... كان يمكن لها أن تنظــر إلى السـماء العــاصفـة كما هو حالهـا في تلك اللحظـات وأن تمشي متأبطة ذراعه (ذراع ذلك التافه!)، وتسير الهوينا في الحديقة تستنشق شذى الازهـار، وتجلس إلى جانبـه فوق العشب، رغم انهـا تعلم اني في تلك اللحظات بالـذات، انـا الـذي كنت انتظـرها بلا جدوى، واتصل بمنزلها لاتلقى نبأ سفرها إلى المزرعة، سوف اكون في صحراء مظلمة، تعذبني ديدان جائعة لا حصر لها، وتنهش في جميع احشائي بلا هوادة.

ورغم ذلك، كانت تتكلم مع ذلك الوغد التافه...!، عن أي شيء كان بوسع ماريا ان تحدث تلك الشخصية النتنة..؟.. وبأية لغة يا ترى..؟ أم لعلي أنـا ذاك الـوغـد التـافـه...؟ أولست أنا من كانا يهزآن منـه في تلك اللحظة..؟ أولست أنا الأبلة، الأحمق ورجل السرداب والرسائل الغامضة..؟

تنقلا في الحديقة طويلاً، وادركتنا العاصفة داكنة يمزق ظلمتها توالي الرعد والبرق. وبدأت الرياح تعصف بشدة، حاملة طلائع قطرات المطر. فاضطرا إلى اللجـوء إلى البيت مسرعين. وبدأ قلبي يدق بعنف موجع، وأحسست من مخبأي

بين الأشجـار، انني، في نهايـة المطـاف، كنت اشهد لحظة الكشف عن سر رهيب بغيض، طالما راود مخيلتي.

ترصدت مصابيح الطابق الأول، الذي كان يلفه ظلام مطبق. وسرعان ما رأيت مصباح غرفة النوم الوسطى، غرفة هونتر، يضيء. كان كل شيء يبدو حتى تلك اللحظـة عاديـاً: غرفـة نوم هونـتر تقابل السلم، وكان من المنطقي ان يشعل مصبـاحهـا أولاً. والآن، لابـد وان يشعـل مصبـاح غرفـة النوم الأخـرى. كانت خفقـات قلبي العنيفـة، تسجل بصخب، الثواني التي يمكن ان يستغرقها وصول ماريا من السلم حتى غرفتها.

لكن المصباح الآخر لم يشتعل.

يا إلهي.. ليس لدي قدرة للتعبـير عن الاحسـاس بالـوحدة المطلقة الذي كانت روحي تنضح به! شعرت كأن المركب الأخير، الذي كان بوسعه ان ينقذني من جزيـريتي المقفـرة يمـر من بعيد، ولا يرى، اشارات استغاثتي. واخذ جسمي ينهار ببطء، كان الشيخوخة قد اردكته فجأة.

شعرت وانا واقف بين الأشجار التي تعبث بها الرياح، تبللني مياه المطر، ان زمناً لا يرحم كان قد مضى، قبل ان أرى بعيني المبتلتين بالماء والدموع، الضوء ينير مخدعاً آخر.

اتذكر ما حدث بعد ذلك كما لو انه كابوس، تسلقت، وانا اصارع العاصفة، قضبان النافذة حتى الطابق العلوي. ثم سرت على السطح إلى ان عثرت على باب. ولجت منه إلى القاعة الداخلية، وبحثت عن غرفة نومها: كانت خيوط النور المتسللة من تحت بابها ترشدني اليها بلا أدنى ريب. قبضت على السكين وانا ارتجف، ثم فتحت الباب. وعندما نظرت إلي بعينين مشدوهتين، كنت أقف عند العتبة. اقتربت من سريرها، وحينما دنوت منها، قالت وقد سيطر الحزن عليها:

- ماالذي أنت مقدم عليه ياخوان بابلو. . ؟

أجبتها ويدي اليسرى تتمسك بشعرها:

- يجب أن أقتلك يا ماريا، لقد تخليت عني.

ثم غرزت السكين في صدرها وانا ابكي، فأطبقت فكيها، واغمضت عينيها، وعندما سحبت السكين وهي تقطر دماً، فتحتهما واهنة، ونظرت إلي بألم وضعة. شعرت بغتة بأن ثورة غضب عارمة تجتاحني فرحت اشبع صدرها واحشاءها طعناً.

ثم خرجت إلى السطح ثانية، ونزلت مندفعاً، كأن الشيطان قد تملك روحي إلى الأبد. كان البرق يكشف امامي، لآخر مرة، منظراً كان مألوفاً لكلينا.

انطلقت إلى بوينس ايرس بسرعة، وصلتها عندما كانت الساعة الرابعة، أو الخامسة صباحاً. من احد المقاهي، اتصلت بمنزل اجيندي، ايقظته من نومه،

وقلت له بأنه يتعين علي ان اراه تواً ومن دون اضاعة اي وقت، ثم ذهبت إلى منزله في شارع بوساداس على جناح السرعة. كان الخادم البولندي ينتظرني عند باب المبنى. حينما وصلت إلى الطابق الخامس، رأيت أجيندي يقف أمام المصعد وعيناه الضريرتان مفتوحتان على مصراعيهما. جذبته من ذراعه وجررته إلى الداخل. تبعني البولندي كالأبله وهو ينظر إلي بدهشة. طلبت منه ان ينصرف، وما ان توارى حتى صحت بالأعمى:

ـ إني آت من المزرعة..!. ماريا كانت عشيقة هونتر!

تصلب وجه اجيندي، وبدت عليه قسمات الموت، واصطكت اسنانه وصاح بحقد دفين:

ـ أيها الأبله.

اثارني عدم تصديقه، فصحت به:

ـ انك انت الأبله! ماريا عشيقتي ايضاً، وعشيقة كثيرين غيري..!

شعرت بمتعة هائلة، وبينما كان الأعمى يقف كأنه تمثال من حجر، صحت في وجهه:

ـ نعم، أنا كنت أخدعك..!.. وهي كانت تخدعنا جميعاً..! لكنها لا تستطيع الآن ان تخدع احداً..! اتفهم..؟.. لا تسطيع ان تخدع احداً..!

عوى الاعمى كوحش مفترس، وهجم علي شاهرا يديه اللتين بدتا كأنهما مخلبان وهو يصيح:

ـ ايها الأحمق..

انعطفت عن طريقه، فتعثر بطاولة صغيرة وسقط على الأرض، وبسرعة عجيبة تمالك نفسه ثم نهض، وبدا يطاردني في انحاء الغرفة، وهو يتعثر بالمقاعد وقطع الاثاث، ويجهش بالبكاء، من دون ان يذرف دمعة، ويردد كلمة واحدة فقط: ايها الاحمق..!

هربت إلى الشارع مندفعاً على السلم، بعد ان طرحت الخادم أرضاً عندما حاول اعتراضي. كان يتملكني الحقد والاحتقار والشفقة.

عندما استسلمت في مخفر الشرطة كانت الساعة تقارب السادسة.

ومن خلال نافذة زنزانتي الصغيرة شاهدت، كيف كان يولد نهار جديد، سماؤه صافية خالية من الغيوم. وتصورت العديد من الرجال والنساء وقد بدأوا يستيقظون، ثم يتناولون فطورهم، ويطالعون صحفهم، ويتوجهون إلى أعمالهم، او يقدمون الطعام إلى اطفالهم، أو إلى قططهم، او يعلقون على فيلم الليلة الماضية.

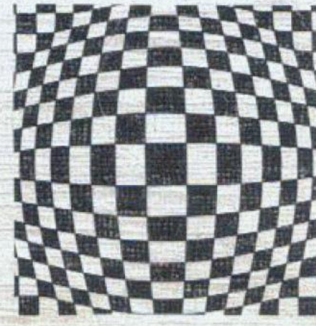
وشعرت ان كهفاً قاتماً اخذ يكبر في اعماقي.

في هذه الأشهـر التي أقضيهـا في السجن، حاولت مرات عديدة، ان أمعن التفكـير في كلمـة الضـريـر الأخـيرة، كلمة، احمق. لكن عياء شديداً ـ أوغريزة سوداويـة رقـما ـ كان يحول دون ذلـك باستمـرار. ولعـلي، في يوم من الأيـام أتمكن من ذلك. عندئذٍ سأقوم بتحليل مايمكن أن يكون قد توفر لاجندي من أسباب قادته إلى الإنتحار.

يمكنني على الأقل، ان ارسم، وان كنت اظن أن الاطباء سيضحكون من وراء ظهري سخرية، مثلما كانوا يضحكون ـ كما أظن ـ أثناء المحاكمة، عندما تحدثت عن منظر النافذة.

كان ثمت مخلوق واحد فقط يفهم رسومي. بينما، لا بد وان هذه اللوحات ستؤ كـد لهم اكثـر فأكثر وجهة نظرهم الغبية. وهكذا ستكون جدران هذا الجحيم يوماً بعد يوم، اكثر صلابة واشد احكاماً.

انتهى



النفق

«أرنستو ساباتو» واحد من كبار أدباء الاسبانية في أمريكا اللاتينية، وأحد عمالقة الفكر والأدب في الأرجنتين. نال شهرة عالمية، منذ أنتج باكورة أعماله «رواية النفق».

ولد في بلدة «روخاس»، في ريف محافظة «بوينس ايرس» في العام ١٩١١ ونال شهادة الدكتوارة في الفيزياء، ثم درس الفلسفة، وعمل في مختبرات «كوري» في فرنسا، وفي الولايات المتحدة، لكنه عام ١٩٤٥ هجر ميدان العلوم نهائياً ليكرس حياته للأدب.

ألف مجموعة أبحاث وكتب حول الانسان وازمة العصر، وحصل على عدة جوائز، لكنه ما أن نشر في العام ١٩٤٨ «رواية النفق»، حتى ترجمت إلى معظم لغات العالم. وفي العام ١٩٦١ نشر روايته الثانية «حول أبطال وقبور» فنالت إعجاب كبار الكتاب العالميين من امثال كامو، وغرين، كواسيمودو، وغيرهم، وترجمت إلى لغات عديدة ايضاً.

ترأس اللجنة الوطنية للمفقودين، التي كان من أهدافها الرئيسية كشف جرائم الحكم العسكري في الأرجنتين.

عالم ساباتو، عالم غريب، خفي، غامض، معقد، صاخب حيناً، وساكن هادىء حيناً آخر. مقتضب تحتاج معه إلى التأمل والتوقف طويلاً، ومتسع رحب تحار كيف تحيط به وتلملم أطرافه.

الناشر

السعر ٥٠ ل . س